مختارات فصول

جميل عطيه ابراهيم

أحاديث جانبية

مختارات فصول

سلسلة ادبية شهرية

(٨٦)

الغلاف للفنان
عماد حليم

مختارات فصول - مختارات فصول - مختارات فصول

جميل عطيه ابراهيم





الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٤

ســاعة : ع • م • ب •

ـ ١ ـ

أثناء زيارة لى الى بيت والدى فى العباسية الشرقية منذ عدة أعوام ، وعلى مرأى من والدى وزوجتى وأطفالى الثلاثة ، استبدت بى حالة من الشقاوة ، أرجعتنى طفلا صغيرا فى حضرة أبى ، فطلبت منه فجــأة أن يخصنى بساعة جيب قديمة من تلك الساعات التى يحتفظ بها فى خزانته •

طلبت هــذا الطلب من أبى ، على سبيل المشاكســة ، وكأننى أقول له : هات الساعات الموجودة فى الخزانة لا فائدة منها ، ومن الأفضل أن يوزعها علينا •

لدهشتى أخــذ والدى رغبتى مأخذ الجــد ، ونظر الى مبتسما وكأنه ينتظر طلبي منذ سنوات طويلة ، وقام لتوه الى

الخزانة وفتحها أمامنا جميعا وتنــاول ساعة وقدمها لى وهو يقول لى :

ـ هذه لك •

كان سؤالى لوالدى نزوة ، وعلى سبيل المداعبــة ليفتح خزانته أمامنا ويطلعنا على بعض أسرارها ، فعلى الرغم من أننى تجاوزت الأربعين من عمرى • فمن أحلى ساعات العمر تلك التى أقتضيها فى حضرة والدى أعابثهما وأتدلل عليهما وأجعلهما يهتمان بى وكأننى مازلت صبيا يافعا • فتعد لى والدتى القهوة ويقدم والدى لى سيجارة ، ولا ينسى أن ينصحنى بالاقتصــاد فى التدخين بينما تذكرنى أمى بضرورة الاهتمام بالرجيم خوفا من مضاعفات السكر ، وأتقبل نصائحهما فى ود ، والأمر لا يخلو أيضا من الاثقال عليهما فى بعض الأحيان باقتراض بعض الجنيهات لأردها بعد عدة أيام أو أسابيع •

طفل مشاكس فى حضرة والدى أنا ، ولم تكن لى دراية بقيمة ساعات الجيب فى ذلك الحين ، فأخذت أقلب الســاعة بين يدى وأحرك عقاربها ، وأطفالى الثلاثة يحيطون بى وأبصــارهم تتعلق بالساعة وكأننى قد حصلت لهم على لعبة جديدة من جدهم ومن حقهم العبث بها ، فزجرتهم قائلا :

ـ هذه ساعة وليست لعبة •

خلعت نظارتى الطبية وقربت الساعة من عينى وفتحت غلافها فى يسر ودققت فى نقوشها وأختامها وتبين لى أنها ترجع الى بداية هذا القرن ولفت نظرى أنها من الذهب الخالص .

كان اسم الشركة المصنعة لها منقوشا عليها ، لكننى لم أتمكن من قراءته لصعوبة النطق به ولعدم درايتى بالساعات الثمينة ، وأكثر ما أزعجنى كونها من الذهب ، فقد كان غاية مرادى الحصول على ساعة جيب معدنية عادية ، أما أن يخصنى والدى بساعة ذهبية قديمة دون اخوتى فلم يكن ذلك مقصدى .

رأيت الاعتذار عن قبول هذه الهدية الثمينة ، لكنه أشار الى بضرورة قبولها ، ولمحت فى عينيه فرحة تدعونى للاحتفاظ بالساعة ، وخشيت أن أغضبه اذا رفضتها . أقول لكم الحق ، لقد احترت فى الأمر .

التفت الى زوجتى أطلب النصح منها ، لكننى وجدتها غاضبة وفى نبرات صوتها سخرية لأننى أود استبدال ساعة يدى الحديثة بأخرى قديمة ، فساعة الجيب « موضة » مضى زمانها ، وليس مهما اذا كانت الساعة ذهبية أو معدنية . وتابعت سخريتها منى قائلة :

ـ هه . يا عباس . ساعة جيب وكاتينة ولا ينقصك الا « المونوكل » لتصبح مثل حسين رياض .

قلت لها يائسا من ضيق أفقها :

ـ ليتنى أكون مثل حسين رياض .

قالت لى فى تهكم واضح :

ـ ممثل يا عباس !!!

قلت لها بالفم الملآن :

ـ نعم .

وقررت الاحتفاظ بهدية والدى الثمينة لى واستخدامها .

ـ ٢ ـ

قضى والدى أكثر من نصف قرن من الزمان مشغولا بجمع ساعات الجيب القديمة من تجار العاديات ومن المزادات وكذلك كاميرات التصوير القديمة والأعداد الأولى من الصحف والمجلات الصادرة فى مصر ، وقد بدأ هوايته شابا واستمر فيها حتى بلوغه سن التقاعد .

وكثيرا ما وقعت لأبى مضايقات من أمى وقد ظلت طوال تلك السنوات ـ كما أذكر ـ تتهمه بالتقتير علينا وتبديد أموال

العائلة على هواية غريبــة لا فائدة منها ولا عائد لها ســوى خراب البيوت العامرة . وفى صباى وشبابى كنت أقاسى من تلك المشاحنات بينهما وهو يقول لها :

ـ هذه هوايتى الوحيدة يا امرأة . كل واحد فيكم له هواية وفيه نقطة ضعف .

فاذا تمادت أمى فى غضبها بعد شراء ساعة جيب أو كاميرا أو أعــداد صحيفة قديمــة ، كان يخفف عنهــا قائــلا وكأنه يسترضيها :

ـ هذه هواية لطيفة . هواية فيها عبق التاريخ ورائحــة الناس الطيبين .

غير أن الأمور بينهما كانت كثيرا ما تتعقد ولا تنتهى بهذه السهولة ـ خاصــة فى مواسم الشتاء ودخول المدارس ـ وهنا كان أبى يلجأ الى أسلحة لا تقوى أمى على التصــدى لها ، كأن يردد على مسامعها وهو مدعيا الغضب مذكرا :

ـ شقيقك الأكبر الحــاج علوان وضع الله فى قلبــه حب النساء وكثرة الزواج والطلاق ، أما هوايتى فهى هواية لطيفــة لا ضرر منها .

فتنسحب أمى صامتة وكأنها قد ألقمت حجرا . وبعدها يحول بصره الينا قائلا :

ــ هذه الهواية ربما تعود عليكم بمال وفير فيما بعد .

ولم يكسب أبى شيئا من وراء هذه الهواية المكلفة التى أنفق عليها مدخرات العائلة وباع من أجلها قطعة أرض ، ظلت أمى تذكره بها غاضبة قائلة من حين الى آخر حين يفيض الكيل بها :

ــ حولت لنا قطعة الأرض الى قطع حديد تملأ الدواليب. كيف يا رجل طاوعك قلبك ؟ !

ثم تتنهد فى حسرة على ما ضاع منا . فيضحك منها . وربما لهذا السبب ابتسم والدى عندما سألته فجأة أن يخصنى بساعة جيب قديمة ، فربما ظن فى شيخوخته وقد تجاوز الثالثة والسبعين عاما أننى قد ملت الى صفه وبدأت فى مشاركته فى هوايته بعد زواجى ، وهأنا أنصفه أخيرا بعد أن عركتنى الحياة وتزوجت وأنجبت ثلاثة أطفال ، وأننى لم أعد أتهمه مثل بقية اخوتى بتبديد أموال العائلة ، وكانت هذه التهمة تتردد على ألسنتنا كلما مرت العائلة بضائقة مالية فى مناسبات معينة مثل زواج واحدة من اخواتى .

فى صغرنا كان والدى يؤدبنا بقوله :

ــ الأشياء لها أرواح يا أولاد .

فاذا خبط أحــدنا الباب بقوة أو رمى قطعــة أثاث على الأرض ، أنبه على فعلته وذكره بأن الخشب يتألم مثل البشر . وقد نشأت على اقتناع بأن المــاديات تتألم حتى تبينت استحالة هذا الرأى ، لكننى ظللت قريبــا من عالم والدى المليء بالأسرار دون أن أكلف نفسى عناء سبر أغوار ساعاته أو أدوات تصويره وان كنت قد اطلعت على صحفه ومجلاته ، وطردت عنى ما كانت أمى تردده علينا فى ساعات غضبها مثل قولها :

ــ أبوكم دقة قديمة ويحب الأشياء القديمة .

واعتبرت والدى واحدا من أصحاب الفلسفات العميقــة فى الحياة ، وأصبح أبى يقول عنى اننى أقرب اخوتى وأخواتى الى عالمــه وان كنت لا أهوى الساعات أو أدوات التصــوير القديمة . واقتنعت بأن الساعة ليست لمعرفة الوقت فقط ولكنها زينة لصاحبها وأن هنــاك علاقة ود خفية تربط بين الانســان وحوائجــه .

من جانبى لم تحدث خلافــات تذكر بين زوجتى وبينى بسبب تعلقى بهذه الساعة والحرص على استخدامها ، فزوجتى ليست من أولئك النسوة اللاتى يهتممن بزينة رجالهن أو الحرص على مظهرهم ، لكن حيــاتى انقلبت بعدها رأســا على عقب

لأسـباب أخرى تماما وبسبب هـذه الساعة التى أهداها لى والدى ، واليكم ما جرى لى •

- ٣ -

كانت زوجتى وفى صحبتها الأطفال فى زيارة لوالدى ذات ليلة من شهر مايو أو أوائل يونيو ٦٧ • لم أعد أذكر التاريخ على وجه الدقة ، ولكنـه كان قبل وقوع الحرب على كل حال ، حين وقع ابنى الأصغر وعمره فى ذلك الحين ثلاثة أعوام فريسة لنزلة معوية شرسـة وأشرف على موت محقـق ، فاقترحت والدتى على زوجتى ضرورة حمـله الى عيـادة الدكتـورة ولاء بسيونى فى شارع جوهر على مبعدة عدة دقائق من البيت •

وقعت كل تلك التطورات فى غيبتى ، وكانت القاهرة فى ذلك الحين نصف مظلمة بسبب الاستعدادات للحرب ، وفور علمى بما وقع لشريف ، هرعت فى الطرقات المعتمة أبحث عن شارع جوهر ولا أدرى حتى هـذه اللحظة كيف وصلت الى العيادة فى العباسية الشرقية قادما من مبنى الاتحاد الاشتراكى على كورنيش النيل وأى طرق سلكت •

وجدت نفسى فى مواجهة ابنى فى غرفة خاصـة فى العيادة وأنابيب المحاليل مغروزة فى جسده النحيل ، وعلمت أن الطبيبة

قد حذرت زوجتى من مغبة الاهمال خوفا من تعرضـــه للجفاف بعد أن فقد جسده كميات كبيرة من السوائل بسبب الاسهال والقيء •

كان لى صديق قد فقد طفلا بسبب هذا الجفاف ، وظل لعدة سنوات يحدثنا عن هـــذه الواقعة الحزينـــة ويروى لنا التفاصيل الدقيقة عن لمعة عينى طفله وهى تنطفىء رويدا رويدا• كان صديقى يقول لى :

ـــ لمعة العين يا عباس فيها سر الحيـــاة ، ورأيت السر يفارق الجسد •

فاندفعت نحو ابنى أنظر فى عينيـــه • وجدتهما تلمعـــان ومغرورقتان بالدموع ، ويناديني ، فاطمـــأن قلبى قليـــلا لفعل المحاليل التى تسرى فى جسده •

لن أطيل عليكم بسرد تفاصـــيل الساعات التاليـــة وقد اختلط علينا النهار بالليل الى درجة أننى لم أع تماما أبعـــاد انطلاق الحرب صباح الخامس من يونيو ، لكننى أود رواية طرف من حديث جرى بين صديقى مفتش الآثار وبين الدكتورة ولاء بسيونى • فقد أتى مشكورا الى العيادة فور سماعه الخبر فى وقت متأخر من الليل بعد عدة أيام ، وقبل أن يحدثنى اندفع

نحو شريف ونظر فى عينيه ثم التفت الى صائحا ، وهو يشير بيديه ويلوح بهما فى عصبية بالغة ويسألنى :

ــ شرب شريف ماء بسكر ؟ ! شرب شايا ؟ !

تلعثمت فى اجابته دون قصد ، فبادرنى قائلا :

ــ افهمنى يا عباس . شرب الولد حاجة وبقت فى بطنه ؟ !

أجابته زوجتى نيابة عنى قائلة :

ــ نعم .

قال وهو يتنهد :

ــ الحمد لله .

وبعدها التفت الى قائلا :

ــ يا عباس أنا أفهم فى هذا المرض أحسن من الاطباء .

ودخلت الدكتورة ولاء بسيونى علينا فى اللحظة التى كان يكمل فيها جملته ، فلم تعلق على قوله ، وانزوى هو صامتا حتى انتهت من كشفها على الطفل ، فعاد الى الحديث متوجها بالحديث هذه المرة الى الطبيبة قائلا :

ــ الأستاذ عباس منزعج دون مبرر . الطفل حالته طيبة .

قالت مؤمنة على كلامه وهى تبتسم :

ــ الحمــد لله ٠

ووقعت عيناى عليها لأول مرة منذ قدومى الى العيــادة منذ عدة أيام ٠ وجه مضىء كالقمر وتبينت أننى لم أرفع عينى اليها أو أمد لها يدى طوال تلك الفترة بسبب انشــغالى بابنى ٠ عينان واسعتان ٠ غمازة حسن تزين وجنة بيضــاء ناصعة أعلى الشفة العليا ٠ شعرها الأسود يسترسل على كتفيها ٠ نعم ٠ هى تلك الصبية اللعوب التى كنا نطلق عليها كليوباترا ٠ ها هى قد أصبحت طبيبة ماهرة بعد أن كنت أتوقع لها أن تصبح راقصة فى ملهى من ملاهى الدرجة الأولى بسبب جمالها وفتنتها ٠

ماذا جرى لهذا العالم ؟ !!!!

ولم يكن الموقف يسمح باسترجاع ذكريات عابثة وحدت بين جسدينا ، فقلت لها وأنا أدارى ابتسامة خافتة :

ــ الأســتاذ علوبة مفتش آثار وله أبحــاث كثيرة عن « الكا » فى الموروث الشعبى ٠

فتركتنى والتفتت اليه قائلة :

ــ هل جمعت ايزيس بقايا جسد أوزوريس من أنحــاء المدن لتدفنها ؟ !

أحسست براحة لأنها انشغلت عني ، وكنت على يقين أن صديقى اذا بدأ حديثه حول الآثار فلن يصمت الا اذا وقعت قنبلة على العيـادة وأنه سوف يسترسل فى حكايات لطيفة ولن يترك لها فرصة لمقاطعته .

أعفانى صديقى علوبة فى تلك اللحظة من مغبة مواجهـة مع كليوباترا على مرآى من زوجتى وطفلى الراقد فى فراشـه بين الحياة والموت وان كان قد تماثل قليلا للشفاء بفضـل عنايتها به .

بدأت الذكريات تطفو الى ذاكرتى رويدا رويدا ، كلماتها الجارحة تنطق بها فى رقة وذوق لا تتوافق مع معانيها . ففى ذات مرة منحتنى قبلة ساخنة وكان عمرها لا يتجـاوز العشرين ربيعا ، وبعدها همست فى أذنى قائلة :

ـ يا عباس . هل تعرف أننا خُلقنا بالصدفة ؟ !

لا زلت أذكر تلك الرعـدة التى أصابتنى من قولها ، وقد لسعتنى كلماتهـا بنيران حارقة ، فانتفضت واستعذت بالله من الشـيطان الرجيم وبسملت ، وقد تخيلتهـا الشيطان الرجيم يحادثنى وقد تجسد أمامى على صورة فتاة جميلة ، وها هو يقودنى الى التجديف بعد أن جرنى الى معصية . صفعتها على

وجهها بقوة . جذبتها من شعرها . بعد قليل سوت شـعرها وملابسها ، وقالت لى فى خجل :

ـــ آسفة يا عباس اذا كنت أزعجتك .

وأثارتنى كلمة أزعجتك . وودت قتلها . وسألتنى قائلة فى براءة :

ـــ ألم تدرس فلسفة فى التوجيهية ؟ !!

كنت وقتها فى كلية الحقوق وأسبقها فى الدراسـة بسنوات عديدة بسبب دراستها اللغتين الفرنسية واليونانية وضعفها فى اللغة العربيـة وقد أصرت والدتها على حصولها على شـهادة الابتدائية من مدرسـة مصرية بعيدا عن المدارس الأجنبية . وكنت أعاونها فى دروس اللغـة العربيـة وأترجم لها مسـائل الحساب والجغرافيا ، فاقترحت على قراءة التراجيديات اليونانية بالعربية ، وأخبرتنى بأنها قد قرأتها باليونانيـة الحديثـة التى تتقنها فأعجبتها .

توجهت بعدها مباشرة الى مكتبـة فى الفجالة بحثـا عن التراجيديات وكتب تفسـيرها .

رحلة طويلة وعريضة قطعتها فى القراءات بين الشك واليقين بسبب كليوباترا ، وفى كل مرة كانت رحلتى تقودنى الى شفتيها

وخفايا جسدها الناضر وقد عاملتها معاملة ربات الجمال القابعات على جبل الأولمب .

كانت كلية الحقوق ذلك الوقت ــ قبل الثورة ــ مليئة بالتيارات السياسية والمدارس الفكرية : وفديون . سعديون . مصر الفتاة . حزب وطنى . اخوان مسلمون . شيوعيون . بالاضافة الى الشعراء والكتاب والفنانين المدافعين عن مذاهب العبث والعدمية . الصراع بين القوى الوطنية وبين الملك ورجاله على أشــده . وانغمست فى السياســة حتى قادتنى الى بحور العمليات السرية ، فابتعدت مضطرا عن كليوباترا ، أو ابتعدت هى عنى ، لا أدرى بالضبط ، افترقنا دون صــدام ، وتابعت هى دراستها الثانوية فى المدارس المصرية بتفوق ودون حاجة الى ، ثم انقطعت العلاقات تماما بسبب بيعهم الفيلا والانتقال الى منطقة أخرى .

ها هى كليوباترا أمامى بعد عشرين عاما أو يزيد وقــد كشفت عن اسمها الحقيقى وقد أضحت امرأة ناضجة ، وطبيبة ماهرة . قليلة الحركة . كلماتها قاطعــة . وها هى فى البالطو الأبيض تستمع الى صــديقى وهو يشرح لها أبعاد قصة ايزيس ، ولا يساورنى شك أنها قد قرأت هذه الأسطورة فى مظانهــا الأصلية عــدة مرات فى صباها باليونانيــة والفرنســية وربما

بالهيروغليفية أيضا ، فهذه الفتاة لا يعوزها شيء اذا أرادت • أرادت اتقان العربية فأتقنتها ، فاذا أرادت الاطلاع على أسطورة ايزيس بالهيروغليفية اطلعت عليها •

زوجتى على مقربة مني تغمز لى بعينها ساخرة من هـذه الطبيبة التى تشغل نفسها بأساطير وحكايات ساذجة ، وتضحك لطيبة صديقي الذى يطاوعه قلبه على رواية مثل هذه الأقوال لها • ما لها وما للأساطير والطائرات الاسرائيلية تعربد فى سماء القاهرة وقد سيطرت على أجواء سيناء • ومن حين الى آخر تهمس فى أذنى قائلة :

ـ يا ندامة ويا مصيبتنا من الحكايات •

كنت أبتعد عنهم وأدور حول فراش ابنى ، أربت على جبينه الساخن ، وأحكم الغطاء عليه ، أو أقرب منه دميته التى على هيئة دب ضخم ، ثم أعود لأقترب منهم •

وكمحقق مدرب أدركت أن الدكتورة ولاء قد اختلقت هذا السؤال لتطيل وقفتها بيننا وتعطينى فرصة لتذكرها ، وقد ظنت أننى كنت أتجاهلها فى الأيام الماضية عن عمد بعد أن تجاهلتها لسنوات عديدة مضت • ها هى تقف على مقربة منى • تذكرنى بوجودها دون كلمة • وأدركت أن مواجهة ما واقعة بيننا بعد أن يفرغ صديقى من حكاياته المسلية حول بطولات ايزيس وتضحيتها ، وقلت لنفسى لأترك الزمام

لها كما كنت أفعل فى الماضى ، وان كنت أرجو منها شيئا واحدا ، هو متابعة الاهتمام بابنى كما فعلت طوال الأيام الماضية .

هل أصارح زوجتى بأن الطبيبة ولاء بسيونى اسمها كليوباترا بابا دوبلوس وأمها اسمها السيدة جويدان قرة زادة الدردنيلى ، وأنها كانت فى صباها جارة لنا فى العباسية ؟ ! هل أقول لزوجتى أن والدها كان من رجال الأعمال اليونانيين المقيمين فى مصر وأمها قيل لنا انها من أصل تركى وتمت الى الملك فاروق بصلة نسب بعيدة ، وأن فيللتهم قد شهدت غرفها الواسعة مطارحة الغرام لها لمدة عامين ولما بيعت الفيلا ، انقطعت صلتها بى تماما .

البلد تعيش أجواء هزيمة نكراء مدوية لا مبرر لها ولا يعرف أحد مداها . الهم العام يقتلنى قتلا . رجوعى الى الماضى البعيد بسبب لقائى بصديقتى السابقة كليوباترا لا يخفف عنى آلام الهزيمة والخوف من مواجهة اللحظة الآتية ولم تعد عدة بيانات من الاتحاد الاشتراكى كافية للتخفيف من آثارها .

سلمت أمرى الى الله طالبا العناية بالبلد والرحمة بابنى الصغير وقد تصاعدت حدة الهم العام . أدور حول الفراش

متجمدا • رأسى مرجل يغلى تفور فيه ذكريات ماضية وأحلام المستقبل المجهضة •

المحقق النابه لا يكشف عن أوراقه مرة واحدة أمام المتهم ، ، بل يتركه طوال الوقت حائرا ليتخبط فى أقواله ، ثم يفاجئه بالأدلة واحدا بعد الآخر مضيقا الحصار عليه ليعترف • وها هى الدكتورة ولاء بسيونى أو كليوباترا بابا دبلوس لم تفصح عن أوراقها منذ قدومى الى العيادة ، سجلت ابنى فى العيادة وكتبت اسمه شريف عباس عجورة بيدها فى الأوراق وعلمت نسبه وحسبه وتجاهلتنى عدة أيام لتنقض على فى اللحظة المناسبة ، وها هى تواجهنى بمعرفتها لى أمام صديقى وزوجتى ، وكأنها تضبطنى متلبسا بجريمة على مرأى من الشهود •

وكما أن لكل شىء نهاية ، كان لابد لحديثهما الذى طال لأكثر من نصف ساعة من نهاية وقد سألته عن المؤرخين الأجانب والعرب الذين تناولوا أسطورة ايزيس ، وأخرجت ساعة الجيب من سروالى ، متأملا الوقت ، وقد قاربت الساعة منتصف الليل •

وفى لحظة خاطفة ، استدارت موجهة الحديث الى بطريقة مفاجئة تماما وغير متوقعة ، بعيدا عن حكاية ايزيس ، قائلة :

ـ ساعة جيب ظريفة .

تركت الســاعة فى راحتى وتواجهت نظراتنا لأول مرة ، فنحت وجهها عنى قائلة :

ـ أعتقد ان هذه الساعة عليها فى الداخل ثلاثة حروف منقوشة بخط صغير هى : ع.م.ب .

كنت قد فتحت غلاف هذه الساعة فى حضرة أبى وزوجتى وأطفالى منذ عدة سنوات ، كما قلت لكم ، لكننى لا أذكر أننى وجدت بداخلها شيئا ســوى اسم الشركة المصنعة لها وقــد عجزت عن قراءته ، فسددتها لها لتفحصها بنفسها ، ودون ان تفتح الساعة أشارت الى جلدة الكاتينة قائلة :

ـ ها هى الحروف منقوشة على الكاتينة أيضا .

اقتربت زوجتى منها وتطلعت فى الكاتينــة وقالت لى فى دهشــة :

ـ صحيح يا عباس . مكتوب عليها : ع.م.ب .

وتبادلنا النظرات أنا وصديقى ، ثم تناول صديقى الساعة منها فى فضول ، وقال لى :

ـ هذه الحروف محفورة أيضا على الغلاف من الخارج .

واستبدت بى حيرة عظيمة • كيف عرفت الدكتورة ولاء بسيونى ان ساعة الجيب التى أعطانى اياها والدى هدية منذ عدة سنوات منقوش عليها هذه الحروف الصغيرة • هذه الفتاة لاتزال على شقاوتها • لم يغير منها الزمن أو دراسة الطب وربما تفاجئنى بعد لحظة بمعرفتها ماركة ملابسى الداخلية أيضا • يا للفضيحة • ماذا تظن زوجتى بى بعد هذا العمر ؟ !

ليس لدى تفسيرات مقنعة ، وعليها ان تفسر سر معرفتها بهذه الحروف المنقوشة على الساعة قبل أن تثير شكوك زوجتى وتتسبب فى انهيار حياتى العائلية •

اعتدلت الدكتورة ولاء تسيونى فى وقفتها ، فأدركت ان لحظة مواجهة قادمة لا محالة ، وقالت لى أمام زوجتى وصديقى ضاحكة :

ــ هذه ساعة المهندس عجورة منزلاوى بك ، أليس كذلك ؟ !

قلت لها :

ــ هذه ساعة والدى •

قالت لى بعدها وهى تبتسم ابتسامة عريضة تخفى فى طياتها أسرار الدنيا بأكملها :

ـ أنت ابنه الأكبر ، الأستاذ عباس ، الا تذكرنى ؟ !

صمت قليلا ، فاستدركت قائلة :

ـ أنا ولاء بابا دبلوس .

قلت لها فرحا فرحة حقيقية :

ـ آه . كليوباترا بابا دبلوس .

ثم قالت متنهدة فى عتاب خفى :

ـ هل تغيرت الى درجة أنك لم تعرفنى ؟ !

ثم التفتت الى زوجتى قائلة :

ـ زوجك يا مدام كان عفريتا فى صباه .

فأكملت زوجتى قائلة :

ـ وحتى هذه اللحظة .

كانت العيادة خالية من المرضى ، بسبب ظروف الحرب ، ودعتنا جميعا الى غرفتها مرحبة بنا وهى تكرر :

ـ نحن جيران يا مدام .

كانت تتوجه بحديثها دوما الى زوجتى وكأنها تسعى الى اكتساب ودها ، وأصرت أن تصنع لنا قهوة بيديها . تركتنا فى

غرفة الكشف وتوجهت الى المطبخ ، فسألتنى زوجتى فى غيابها :

ــ انت تعرف الدكتورة من زمان ؟ ! أطلب منها تكرمنا فى الحساب .

فأدركت لفورى أن زوجتى قد اتجه تفكيرها الى الأمور المعيشية وقد شغلتها ميزانية البيت بعد أن سددت للعيادة ما يزيد عن ستين جنيها قيمة المحاليل ، وما تبقى علينا قد يزيد عن هذا المبلغ ، وكانت قد اقترضت من والدتى ثلاثين جنيها عند قدومها الى العيادة فى أول مرة ، وأخذت تلح على ألا أتأخر فى سدادها مثل كل مرة لأن ذلك يقلقها كثيرا .

قلت لها ان الطبيبة لن تأخذ منا مليما بعد أن تذكرتنا ، فقالت لى مؤنبة :

ــ وكيف نسيتها يا عباس ؟ دكتورة . وجارتكم . دا اللى مالوش حكيم فى الزمن ده يدور له عن حكيم .

قلت لنفسى ساخرا بعيدا : دا اللى مالوش عشيقة فى الزمن ده يدور له عن عشيقة .

زوجتى لا تعرف مدى العبث الذى وصلت اليه علاقتنا . كانت نزوات شباب بسبب رغبات عارمة فى التفتح على الحياة ،

لكن ذلك لا يمنع من القول أن ما تم بيننا كان من الأمور التى لا يجرؤ المرء على الافصاح عنها فى رجولته .

من حسن حظى أن زوجتى تشغلها هـذه الساعة الأمور المـالية ، وقد ابتعدت بذهنها عن السؤال عن طبيعة معرفتى بها ، فقلت لها ضاحكا لأثير خوفها :

ــ الدكتورة ولاء كانت بخيلة جدا فى صباها . قلت صباها وليس شبابها ، فالتقطت زوجتى الكلمة ساخرة وعقبت قائلة :

ــ صباها . هو كان لعب عيال . أنا فاكرة الدكتـورة بتحبك وسوف تكرمنا .

فضـلت الصمت وعدم الثرثرة ، وأكثر ما يشـغلنى عن زوجتى هو معرفة ما تدبره الدكتورة ولاء لى بعد أن أفصحت عن شخصيتها ومعرفتها بساعة أبى والرموز المنقوشـة عليهـا التى تشير الى اسمه : عجورة منزلاوى بك .

بعد قليل هلت الدكتورة ولاء علينا وفى يديها صينية صغيرة عليها أربعة فناجين قهوة ، قدمت واحدا الى زوجتى قائلة :

ــ أرجو أن تعجبك قهوتى .

ثم اتجهت الى صديقى وبعدها نحوى وهى تتأملنى وقد وقفت بين زوجتى وبينى فحجبتنى عنها وقالت :

ــ حقيقة أنا تغيرت يا عباس الى درجة أنك لم تعرفنى ؟ ؟

قالت هذه المرة : يا عباس . دون ألقاب واتجهت الى كرسى بجوار زوجتى وتناولت قهوتها .

انتظرت حتى اعتدلت فى جلستها وقلت لها :

ــ نحن لم تتقابل منذ بيع الفيلا ، منذ أكثر من ثلاثين عاما .

فقالت زوجتى مؤنبة :

ــ من عشر سنين على الأكثر يا عباس . الدكتورة عمرها لا يزيد عن خمسة وعشرين عاما .

ثم التفتت اليها قائلة :

ــ والنبى انت قمر يا حبيبتى .

فضحكت الطبيبة ضحكة عالية .

قلت لنفسى خائفا . ها هى جمعتنا حولها لتلقى علينا

بمفاجآتها واحدة تلو الأخرى ، ومعرفتها بسر ساعة أبى يحيرنى تماما • وبعدها سألتنى قائلة :

ــ والباشمهندس عجورة بك لايزال يجمع التحف ؟ !

قلت لها فى فخر :

ــ أعتقد انه قد توقف بعد خروجه الى المعاش منذ أكثر من عشر سنوات ، لكنه لايزال مهتما بمجموعته ، وقد أعطانى هذه الساعة هدية بعد الحاح منى •

ارتسمت على وجهها علامات اهتمام غامضة ، علامات لا تعبر عن فرح أو يأس ولكنها تفصح عن تقليبها للأمر ، وأدركت لأول مرة ، أن الدكتورة ولاء مشغولة بهذه الساعة وليس بشخصى • وتضايقت •

فى الماضى البعيد اذا كانت قد طلبت منى أن أقدم لها رقبتى على طبق من البللور فى مقابل قبلة لفعلت ، لكنها كانت فى كل مرة تسألنى :

ــ تحبنى يا عباس ؟ !

أقول لها فى شوق وحرقة :

ــ نعم •

فتقترب منى وتدعنى أعاونها فى التخفف من ملابسها • كانت تنفر منى اذا رأتنى متعجلا ، وتهددنى بأنها سـوف تشوه وجهها بمية النار لتتأكد من حبى لها • فأقول لها اننى لن أتخلى عنها حتى اذا أصبحت أحدب نوتردام ، فتضحك راضية من قلبها ، وتطلب منى أن أضمها الى بقوة •

لم أنفق عليها مليما ، ولم أصحبها الى سينما ، بل كانت أمها السيد جويدان قرة زادة الدردنيلى تمنحنى فى كل شـهر خمسين قرشا ، وعندما حصلت على الشهادة الابتدائية منحتنى قطعة صـوف انجليزى ، فصلتها بدلة لى كنت أذهب بها الى كلية الحقوق مختالا • وها هو وقت الحساب قد حل ، وها أنا مدين لها بانقاذ ابنى من موت محقق ، ومدين لها منذ سـنوات المـاضى •

فى نذالة واضحة ، قلت لها :

ــ كنت أود أن أقدم هذه الساعة لك هدية ، لكنها هدية لى من أبى •

وضعت الدكتورة ولاء بسيونى قدما فوق أخرى وجذبت طرف البالطو على ركبتها ، لكن جانبـا من فخذها ظل عاريا• رفعت عينى الى جذعها الأعلى متوقفا بعينى عند صدرها ورقبتها

وصعدت بهما الى وجهها متأملا طابع الحسن كما كنت أفعل فى الزمن القديم •

قطعت الصمت قائلة :

ـ هذه الساعة كانت من ممتلكات أمى ، وقد باعتها وقت أزمة مالية مرت بأبى أثناء الحرب العالمية الثانية ومطاردة قوات الحلفاء له بسبب تعاطفه مع الحركة اليسارية فى اليونان فى ذلك الوقت • والحروف المنقوشة على الساعة تشير الى باشا تركى من أقرباء أمى ، وقد ورثت عنه أمى مجموعة من الساعات آلت كلها الى الباشمهندس عجورة منزلاوى بك وقد توافقت الحروف ع•م•ب مع اسمه •

كانت الدكتورة ولاء بسيونى توجه حديثها الى زوجتى وقد أدركت بفطنتها أنها سوف تعاونها فى استعادة ثروتها التى ضاعت وربما لأنها لمحت فى عينيها عدم اهتمام بالتاريخ أو مخلفاته •

الأمر بالنسبة لى كان فى غاية الوضوح ، فأبى لن يفرط فى مجموعته الا على جثته كما يقولون ، حقيقة اننى ابنه الأكبر وواحد من ورثته بعد عمر طويل لكننا لن نرث الرجل حيا ، فهذه أشياؤه جمعها بكده ومن حقه الاستمتاع بها الى آخر نفس فى عمره •

هيهات أن تدرك زوجتى هذه الأمور •

وكان لابد لنا أن نفترق وقد تجاوزت الســاعة الواحدة ليلا ، وقد استمعنا عدة مرات الى موجز الأنباء ، فقمنا دون أن نستكمل حديث الساعات •

— ٤ —

فى الأيام التاليــة تابعت الدكتورة ولاء بسيونى العناية بشريف كما فعلت فى السابق وقد نحت حديث الساعات جانبا وتناسته ، وفى كل يوم كانت زوجتى تسألنى شيئا عنها أو تروى لى شيئا جديدا عن العيادة وقد توطدت علاقتهما بسبب مبيتها الى جوار شريف فى العيادة •

تماثل ابنى للشفاء وعادت اليه عافيته وفتحت شهيته الى الطعام ، فاقترحت زوجتى نقله الى البيت ، وطلبت منها مناقشة الدكتورة ولاء فى امكانية متابعة علاجه فى البيت ، وكنت فى الأيام السابقة لم التق بها فى زياراتى الى العيادة بسبب انشغالها فى عمليات وضع لسيدات فى الحى فى الأنحــاء القريبــة من العباســية •

كانت أبعاد الهزيمة قد اتضحت وتساقطت رؤوس كثيرة

وتبدلت قيادات وهوت تنظيمات وتولى الرئيس عبد الناصر بنفسه مهمة اعادة بناء البلد من جديد •

من موقعى على مقربة من الدوائر الحاكمة فى الاتحاد الاشتراكى كنت أعرف أن المؤامرة التى تعرضت لها مصر عبد الناصر كانت واسعة النطاق وأكثر احكاما مما توقعه الكثيرون فى نظام الحكم ، لكن ذلك لا يعنى اننا كنا على شيء من القوة أو التماسك ، فالدودة كما يقولون كانت فى جذر الشجرة •

طلبت منى زوجتى ضرورة الالتفات الى شئوننا الخاصة ، ونصحتنى بالعمل فى المحاماة بعد الظهر بعيدا عن المشاغل السياسية التى لا طائل منها ، وقد ضاع ما ضاع والعوض على الله •

حقيقة لم تتناول فى عيادة الدكتورة ولاء بسيونى السياسة بشكل مباشر واقتصرت أحاديثنا فى الأيام الأولى للحرب على متابعة سير المعارك ، ويبدو أنها كانت تتحاشى الاشارة الى ما يجرى فى البلد من أحداث تضغط على أعصاب الناس وأنفاسهم ، وعلمت فيما بعد أن الدكتورة ولاء كانت تذهب الى القصر العينى للمعاونة فى العلاج كمتطوعة فى ساعات الظهيرة وبعد العيادة ، وأنها كانت مهمومة للغاية بسبب حروق الجنود ونوعية الشظايا التى أصابتهم على الرغم من صمتها • كنت

أتصورها بعد كل هذه السنين فتاة لعوبا نصف أجنبيه ، فغيرت تصوراتى عنها ، وجعلتنى أنحى خـاطر الهجرة الى بلد تغطى الذى سيطر على فى ذلك الحين بقوة ، وقررت البقـاء وسط هذا الحريق المشتعل •

وعندما جاء وقت الحساب رد كاتب العيادة الى زوجتى عشرين جنيها ، فلم أصـدق زوجتى وطلبت منها مراجعتـه ، فقالت زوجتى لى انها راجعته عدة مرات ، فصرح لها آن هذه هى أوامر الدكتورة ولاء •

فى اليوم التـالى ، أخبرتنى زوجتى ان الدكتـورة ولاء أخبرتها أنها على استعداد لدفع عشرين ضعفا فى الساعات التى سبق لوالدى شراءها ، فالساعة التى دفع والدى فيها خمسين جنيها سوف تدفع فيها ألفا ، وطلبت معاونتها فى اتمام هـذه الصفقـة •

كنت فى حالة حزن عامة ثقيلة على الرغم من شـفاء ابنى وعودته الى البيت • حالة حزن يتساوى فيها الغنى والفقير وقد فقدت الحيـاة بعد الهزيمة طعمها السابق ، فلم أتحمس لقولها ، كما اننى بدأت أفهم سر اقبـال الدكتورة ولاء بسيونى على استرداد هذه المجموعة النادرة من الساعات • انه الحرص على التاريخ وقت الأزمات • وأدركت أيضا أن والدى لهذا السبب

نفسه لن يفرط فى مجموعته • وتركت لزوجتى معالجة الأمر بحكمة بالغة نظرا لحساسية هذا الموضوع بالنسبة لأبى العجوز •

— ٥ —

سرعان ما انتقل حديث صفقة الساعات الى اخواتى المتزوجات وأزواجهن ثم الى شقيقى اللذين يصغرانى ، ولا أعرف كيف استقر رأيهم جميعا على ضرورة التصرف بسرعة ومواجهة أبى خوفا من ضياع هذه الصفقة •

ساورتنى مخاوف كثيرة على صحة أبى • ولاشىء يفرق بين الاخوة سوى مسائل الميراث وتقسيم الثروة ، وأعلنت عليهم جميعا ان ساعة والدى الذهبية أو ساعة : ع•م•ب الباشا التركى فى الصون والأمان وهى تخصهم وكل منهم له نصيبه فيها وفقا للشرع •

وتولت والدتى المهمة ، فاتصلت بالسيدة جويدان قرة زادة والدكتورة ولاء بسيونى ودعتهما لمعاينة الساعات ، بعد أن فوض أبى أمره الى الله قائلا لهم :

ــ بعد ضياع سيناء والقدس لاشىء يهم •

استسلم أبى تحت ضغط منهم ، ولم تسعفه قواه على المقاومة طويلا . كان كطائر محلق نزع ريشه عنوة فسقط من حالق الى الأرض وتكسرت عظامه . اثنتان من اخواتى البنات كانتا تعانيان من أزمات مالية بسبب عسر زوجيهما . واستقر الرأى على أن بيع هذه الساعات سوف يمكن الجميع من بحبوحة فى العيش .

طلب أبى رأيى ، وكان ينتظر منى أن أقف الى صفه ، لكننى راوغته ، أؤيده ثم أطلب منه أن يبالغ فى الثمن ، فيقول لى فى صوت خافت :

ـ يا عباس المهم المبدأ ، أنا لا أسألك فى السعر فأنا أدرى الناس بقيمة كل ساعة .

ألف وأدور فى الحديث . يسمعنى ثم يشيح بوجهه عنى بعيدا . يصمت . خذلته . سألنى عدة مرات رأيى ، وراوغت . كنت كمحام يتصدى لقضية خاسرة فيعيد تقديم الأدلة الضيقة التى يمتلكها بطرق مختلفة بعد تغليفها بمعسول الكلام . وأخيرا نطق أبى قائلا لى فى يأس :

ـ افعلوا ما شئتم .

ثم التفت الى مؤنبا لى دون اخوتى جميعا وهو يقول :

ـ ما ضيع البلد سوى هذا الكلام •

– ٦ –

كثر تردد السيدة جويدان قرة زادة الدردنيلي وفي صحبتها خبير في الساعات القديمة على بيت العائلة ، وكما أذكر فهى سيدة بدينة جدا ، لا تجلس الا متربعة على الأرض ، أمامها عدة فناجين قهوة صغيرة ، وفي يدها نرجيلة لا تفارق فمها • ويبدو أنها لم تغير عاداتها طوال تلك السنين ، فكانت تعد لها شلتة على الأرض ، وتزودها والدتى بفناجين القهوة التركى ويطلب لها أبى نرجيلة من مقهى مجاور • وعلمت أنها كانت تخرج من حقيبتها كشوفا بالتركية تراجع عليها ماركات الساعات وتدون عليها ملاحظاتها وكثيرا ما سألت أبى عن تفاصيل فنية • غير ان زوجتى ألمحت لى مرة بطريقة غامضة بعد أن حضرت جلسة من جلساتهم أن أبى متيم بهذه المرأة البدينة •

وهكذا ذكرتنى زوجتى بأحداث كنت قد نسيتها أو تناسيتها ، وضحكت من رهافة حس النسوة في الأمور العاطفية ، وقلت لنفسى يبدو أن أبى لم يضيع ثروته هباء •

كان يعجبنى في السابق في هذه السيدة اصرارها على تعليم ابنتها اللغة العربية حتى اننى كنت أعتقد أنها تعدها زوجة

لأحد الأمراء ، لكنني بعد أن أخبرتنا الدكتورة ولاء أن والدها مر بأزمات مالية وقت الحرب العالمية الثانية بسبب مطاردة الحلفاء له ، أدركت أن هذه السيدة البدينة بئر أسرار ، وأنها قد عانت كثيرا فى حياتها بزواجها من الخواجة بابا دبلوس اليونانى الذى أجبرته على أن يغير اسمه الى بسيونى قبل زواجها منه .

- ٧ -

أشاعت السيدة جويدان قرة زادة الصخب والبهجة فى جو العائلة بأحاديثها عن حياة الأمراء ونوعية الساعات وجعلتنا نحلم بالثورة الى درجة ان أزواج شقيقاتى أصبحت أحاديثهم كلها حول الساعات وماركاتها والبلدان المصنعة لها وبدأوا أيضا يتطوعون بنصيحة والدى بالتشدد مع السيدة جويدان وعدم التساهل معها ، خاصة بالنسبة الى ساعة الباشا التركى : ع.م.ب التى فى حوزتى .

ضايقتنى هذه النبرة فى أحاديثهم وكرهت فيهم تلهفهم على الميراث . وكففت عن استخدام ساعة الجيب وعدت الى ساعة يدى اليابانية الصنع الرخيصة .

الحياة سلسلة من الاطماع والأحلام ، حتى زوجتى أصبحت تراودها أحلامها فى تجديد أثاث الشقة وشراء سيارة صغيرة لتنقلاتنا . بينما كان يشغلنى موقف أبى الذى خذلناه جميعا وهو يرى مجموعته النادرة تعبث بها الأيدى وتدور حولها أحاديث من لا يعرفون سوى قيمتها المادية المجردة . لكن الأمور كانت تسير فى مجراها بقوة دفع ليس فى مقدورى التصدى لها أو تعطيلها . فوقف اتمام هذه الصفقة كانت اضراره لا تقل عن طلاق واحدة من شقيقاتى بسبب عسر زوجها وافلاسه .

سلمت أمرى الى الله ووقفت متفرجا .

وذات يوم أخرجت السيدة جويدان قرة زادة الدردنيلى شيكا باسم أبى وجاء حمالون لحمل الدولاب الصغير وبداخله الخزانة الصغيرة التى تضم الساعات وخرجوا .

وودع أبى مجموعته النادرة بابتسامة خافتة ودمعة خفيفة وكأنه يقول لنا :

ـ ألم أخبركم . لقد عادت عليكم هوايتى بالمال الوفير وفى حياتى أيضا .

- ٩ -

ذات يوم وقع والدى مصابا بالشلل الكامل بسبب جلطة فى الدماغ . هرعنا جميعا الى الدكتورة ولاء بسيونى التى بذلت ما فى وسعها مع مجموعة من الأطبـاء المتخصصـين فى القلب والدماغ والأعصاب والدورة الدموية .

كان أبى يتنفس بصعوبة ولا يقوى على الكلام وقد اعوج فمه ونام جانبا من رأسه بأكمله فلم يعد فى مقدوره اغماض عينه اليسرى وظلت مفتوحة محمرة ، فاذا نعس خـال من يراه أنه ينظر اليه فى رقدته .

لم يخالجنا شك أن ما جرى لوالدى مرجعه حزنه الدفين الخفى بسبب بيع مجموعته النادرة ، لكن الفأس كانت قد وقعت فى الرأس ولم يتبق لنا سوى البكاء الصامت .

- ١٠ -

ذات يوم أعادت الدكتورة ولاء بسيونى الدولاب وطلبت من مجموعة الحمالين وضعه على بوريه فى مواجهة أبى .

ونظر أبى بعينه السليمة الى الدولاب ولم يرمش أو يهز

يده السليمة . لم يعبر عن أسف أو فرحة وظل وجهــه جامدا ونظراته غائبة عن عالمنا .

– ١١ –

بعد وفاة أبى وانتهاء مراسم التعزية بعدة أيام ، اتصلت بالدكتورة ولاء بسيونى فى عيادتها وشكرتها لمـا بذلته من جهد فى مداواة أبى ، وطلبت منها ارسال حمالين لاستعادة الدولاب والخزنة الحديدية ومجموعة الساعات ، لكنهــا فاجأتنى بقولها ان الدولاب كان خاليا من الخزانة ، وفى مقدورنا الاحتفاظ به .

– ١٢ –

أحس أبى ــ وكان مهندسا قديرا ــ فى غيبوبته بين المنام واليقظة أن الدولاب كان خاليا من الساعات .

وزاد حزنى لخديعتنا له فى اللحظات الأخيرة من عمره ...

٣٠ ديسمبر ١٩٨٩

ليــزا

هذه ليست حكاية .

ما أرويه لكم قد وقع لى ، وها أنا أرويه كما حــدث فى المــاضى منذ أربعين عاما . ففى ذلك الحين انتقلت للسكنى فى مدينة القاهرة ، وكنت قبلها أعمل فى مدينــة طنطا فى وظيفــة بسيطة فى مصلحة الطب البيطرى هناك ، وقلت لنفسى لأنتقل الى العاصمة وأغير الوظيفة أيضا ، وهكذا وجدت لى وظيفــة فى مصلحــة التليفونات فى القــاهرة ، وأصبحت أحرر فواتير التليفونات بدلا من حصر وتسجيل أدوية البهائم المريضة .

فى بداية عملى فى مصلحــة الطب البيطرى فى طنطا كنت أخرج مع الطبيب الى القرى المجــاورة وأنــا أحمل الأدويــة والحقن وأدوات التطهير والولادة والبالطو الأبيض أيضــا . وكانت مهمتى عندئذ هى تحضــير البهيمة ــ ولامؤاخــذة ــ

للولادة عندما تكون الولادة متعسرة . وذات ليلة سوداء ماتت بهيمة لعائلة غنية فى أيدينا ولم يقدر الطبيب على انقاذ العجل الصغير ومات فى بطن البهيمة ، وهو ما يفعله دائما حلاق القرية ، وهاجت القرية بعدها وسعت للقضاء علينا واتهمنا بالاهمال وأخذ الحلاق يروج الأقاويل عنى ويتهمنى باننى تسببت فى موت البهيمة ولم أسعف الطبيب بالأدوات لسحب العجل من بطنها . ولم ينقذنا ليلتها من أيديهم سوى قدوم العمدة وشيخ الخفر .

بعد هذه المواقعة المؤسفة ، طلبت نقلى من الخدمة الفنية الى الحسابات ، وبعد فترة ، قلت لنفسى ، لأرحل الى العاصمة بدلا من المعيشة فى الريف ، وذلك على الرغم من أن طنطا مدينة صغيرة ، وذلك لسبب آخر ، سوف أقصه عليكم فيما بعد .

وقدمت الى القاهرة ، واستأجرت هذه الغرفة الواسعة والتى أسكن فيها منذ ما يزيد عن أربعين عاما ، كما قلت لكم ـ والغرفة لها دورة مياه مستقلة ومطبخ صغير ، وكانت مزودة بالكهرباء فاشتريت لى مذياعا .

فى ذلك الوقت ـ منذ أربعين عاما ـ كانت الحارة نظيفة وهادئة وكنت أخرج من المصلحة فى ميدان التحرير ـ

الاسماعيلية ــ وأسير على قدمى حتى أصــل الى ميدان عابدين ثم انحرف يسارا فى اتجــاه العتبة الخضراء قبل أن أصــل الى الطريق الرئيسى الذى تتفرع منه الحارة •

كنت سعيدا بالسكنى فى هذه الغرفة وعلى الرغم من أنه فى ذلك الوقت لم تكن هنــاك أزمة مساكن فى القاهرة مثل هذه الأيام وكان فى مقدورى الانتقال الى غرفــة أخرى بســهولة الا اننى كنت راضيا بغرفتى ، فهى مريحة والحــارة هادئة ، ومعظم سكانها من الأرمن ومن اليونانيين ومن اليهود أيضا ، وكان يطلق على الحــارة فى ذلك الحين لكثرة اليهود بها ، حارة اليهود رقم ٢ وذلك للتفرقة بينها وبين حى اليهود فى العباسية والخرنفش •

كان صاحب البيت ــ وهو جزار ــ يشغل هو وعائلتــه المكونة من زوجته وفتاتين وصبى الطــابق الأرضى بأكمله ، وكانت الفتاة الكبرى عندما حللت بغرفتى فى الخامسة عشرة من العمر ، أما الطابق الأول فقد كانت تشغله عائلتان ، احداهما يهودية والأخرى مسلمة ، وكانت غرفتى تتوسط هاتين العائلتين وتطل على الحــارة من ناحية وعلى المنور من ناحية أخرى •

فى بعض الليالى كان الجزار يصعد الى غرفتى بالطــابق الأول ونتحدث سويا حول البهــائم وأسعارها ، ويســألنى عن

الأمراض التى تصيبها وذلك بعد أن عرف اننى قد عملت لفترة طويلة فى مصلحة الطب البيطرى فى طنطا ، وكان يحرص على الصعود الى غرفتى عندما تكون حفلة غنائية مذاعة على الهواء للسيدة أم كلثوم أو السيدة ملك التى كان يطربه غناؤها فى ذلك الحين ، فيأتى الى بعد العشاء ونشرب الشاى وندخن السجائر ونسهر سويا حتى انتهاء الحفل عند مطلع الفجر .

وعندما كانت تغنى أم كلثوم أو محمد عبد الوهاب كانت زوجته تطلب منى سرا أن أنقل الراديو الى بير السلم خارج الغرفة حتى تتمكن من متابعة الحفل ، وهى فى موضعها فى الطابق الأرضى ، وعندما يبدأ محمد عبد الوهاب فى الغناء تتلمس المعاذير الواهية للصعود الينا للاستماع اليه ، فيبدى زوجها الجزار تبرمه ويجبرها على الهبوط الى الطابق الأرضى للبقاء مع البنات اللاتى يحرم عليهن الاستماع الى هذه الأغانى . أما الصبى الصغير ، فكان يلازمنا طوال السهرة .

وصرح لى الرجل ذات ليلة انه سوف يشترى مذياعا فور زواج البنتين وسترهما ، فهو لا يقبل أن يظل المذياع يغنى طوال النهار فى آذانهما ويفسد أخلاقهما . وكنت أعرف أنه فى مقدوره شراء واحد ، وأنه يؤجل ذلك حتى زواج البنتين ، بينما كانت زوجته تود شراء مذياع وتتهمه بالبخل .

وبمرور الشهور بدأت تتوطد معرفتي ببقية الجيران ، فأثناء ذهابى الى العمل فى الصباح أو عند قدومى بعد الظهر تتبادل أحاديث سريعة لكنها تكفى لأعزب يقطن وسط عائلتين • وكنت أحتفظ دائما ببعض السوائل المطهرة مثل صبغة اليود أو لفافة قطن أو قطعة شاش ، وأشترى الأهرام بصفة منتظمة ، وأستمع الى نشرات الأخبار ، وهذه كلها مسببات مقبولة لتبادل الأحاديث معى ، وسؤالى عما يدور فى العالم الخارجى •

كان سبب مغادرتى لمدينة طنطا هو اننى كنت قد قررت عدم الزواج وذلك لكثرة حالات الولادة التى قمت بها ، فالبهائم تتألم عند الولادة مثلها فى ذلك مثل النسوة • وعلى الرغم من الفرحة التى تعم البيت بعد الولادة وانطلاق الزغاريد، فالعجل فى القرية مقامه مقام الصبى تماما ، الا أن نفسى قد عافت الخلفة بالرغم من تعلقى الشديد بالنساء وحبى لهن ، وقلت لنفسى : اذا كان عزوفى عن الزواج فى مدينة صغيرة مثل طنطا ، سوف يثير الأقاويل حولى ، لأرحل الى القاهرة وأبحث عن وظيفة أخرى • وكنت قرأت أن معظم أطباء الولادة فى العالم يزهدون فى الزواج والنساء من كثرة الممارسة الطبية : وأقنعت نفسى باننى أيضا من ضحايا ممارسة مهنة الطب البيطرى •

فى الأسبوع الأول من قدومى الى القاهرة تعرفت الى امرأة تعمل راقصة فى شارع الهرم وتقطن فى شارع محمد على وبدأت زيارتها سرا كل أسبوع ، وعن طريقها تعرفت الى عدة نسوة ، وأخبرت صاحب البيت ذات ليلة بقصة ملفقة عن خطيبة لى توفاها الله بمرض خبيث قبل زفافنا بشهر ، فقررت عدم الزواج بعدها من شدة الحزن عليها ، فزاد ذلك من تقدير الرجل لى ، لكنه من حين الى آخر كان ينصحنى بالزواج .

وهكذا كانت حياتى مستقرة هادئة ، وتسير سيرها الطبيعى فى الحارة ، وكان ذلك بعد الحرب العالمية الثانية بعدة سنوات ، وموجة الغلاء تجتاح المدن الا اننى ظللت فى بحبوحة من العيش . ومضت الأيام رتيبة الى أن توطدت علاقتى بفتاة يهودية تتردد على الجيران .

كانت الفتاة اليهودية تعشق الرسم وكنت أخرج معها فى بعض الأحيان الى الأحياء الشعبية فى أطراف المدينة ، وقد دفعتنى هذه الفتاة الى استكمال دراستى حتى حصلت على شهادتى الثقافة والبكالوريا فيما بعد . وعلمتنى الحديث باللغة الفرنسية بطلاقة ، وكانت تزعم أن حلم حياتها العيش فى باريس كفنانة .

وكانت تسألنى ، لمـاذا لا أتزوج وأنجب ستة من البنين أو البنات مثل بقية المصريين ؟ ! وأقول لها كل مرة ، انني أنفر من فكرة الزواج كمـا أن فكرة انجـاب الأطفـال ورعايتهم تصيبنى بالغثيان .

وذات مرة بعد تعرفى عليها بعدة أشهر ، ونحن نتنزه فى قارب فى النيل بعيدا عن الشاطىء ، سألتنى اذا كنت أرغب فى النوم معها فعلى أن أطلب ذلك منها فى وقت يناسبها ، وحذرتنى من طلب ذلك فى وقت لا يناسبها ، قائلة ، انها فى هذه الحـالة سوف تتصرف معى كأية لبؤة شرسة .

قلت لها ، وأنا أضرب صفحة المياه بالمجـدافين ، وقـد أخذت بالسؤال وبالتحذير أيضا ، سوف أفكر فى الأمر .

الثقة التى تتكلم بها ضايقتنى بل أزعجتنى ، وكأننى عند فعل هـذا الشىء يجب على أن أكون مرهونا بارادتهـا هى ، ولكنها فور سماعها اجابتى المقتضبة ، احمر وجهها بشـدة ، وبان غضب مكتوم عليها ، وتركت دفـة القارب فجـأة فأخذ يتأرجح بشدة .

توقفت عن التجديف وعملت على توازن القارب بأن غمست أحد المجدافين فى المياه ورفعت المجداف الآخر .

نظرت اليها وهى جالسة فى نهاية القارب • الشمس تنعكس على وجهها فلا أتبين تعابيره جيدا ، ولكن فور أن دار القارب دورة وأصبحت الشمس فى مواجهتى وغمرها الظل ، لمحت فى عينيها شراســة وتوترا فى أطرافها كلها • وأدركت اننى أتكلم فى هذه اللحظــة مع اللبؤة الشرســة التى حــدثتنى عنها منذ دقائق ، وأدركت أيضا مغبة أية اجابة حمقاء تصــدر عنى فى هذه اللحظة ، فالفتاة تجلس على مقربة من المياه ، ولن يتسنى لى انقاذها أو انقاذ نفسى اذا هبت واقفة فجــأة أو مالت على سطح القارب بقوة الى اليمين أو اليسار •

قلت لها فى لهجة جادة ودون أن أنظر فى عينيها :

ــ ليزا هذا الأمر لا يتعلق بك •

فقاطعتنى قبل أن أكمل حديثى قائلة :

ــ كيف ؟ هذا الأمر يخصنى • ويخص أحاسيسى • يتعلق بأنوثتى •

قلت لها :

ــ كلا • هذا الأمر يتعلق بصديقة لى أعرفها منذ عدة ســنوات •

بان السرور على وجهها ، واعتدلت فى جلستها ، وقالت :

ـــ اذن أنت لك صديقة غيرى ٠

قلت لها :

ـــ نعـــم ٠

قــالت :

ـــ دعنى أتعرف عليها ٠ أود أن أرسم لها صـــورة ٠ أين تسكن ؟ لتكن صديقتك صديقتى أنا أيضا ٠

قلت لها ضاحكا :

ـــ هل تودين أنت أيضا النوم معها ؟

أخذت تضحك وتضرب القارب بقدميها فى بهجة كطفلة صغيرة ، ثم سبتنى بكلمـــة فرنسية ، أدركت معناها من اشارات يدها والضحكة المرسومة على شفتيها ٠

طلبت منها أن تمسك الدفة ، فسألتنى قائلة :

ـــ هل تخاف الموت ؟ !

قلت لها :

ـــ نعـــم ٠

قالت لى فجأة :

ـ اليهود مثل المصريين ، كلهم يخافون الموت ؟

لم أفهم فى ذلك الوقت ماذا تقصد ؟ وسألتها فى براءة :

ـ ألست أنت أيضا مصرية يا ليزا ؟

ترددت قليلا ، ثم قالت لى :

ـ نعم . أنا مولودة فى الخرنفش . مصرية .

فى نزهاتنا السابقة كنا نتحدث فى أمور أخرى ، عن الموسيقى أو عن مدى بؤس الفلاحين فى مصر أو عن آخر لوحة لها ، وكانت هذه هى المرة الأولى التى تتحدث الى فيها كيهودية .

كنت فى تلك السنة قد قرأت شيئا من تاريخ أوروبا بالصدفة ، وعند تعرفى عليها لحظت أنها تعرف الكثير مما لا أعرفه عن الحرب العالمية الأولى ، وأخذت تحدثنى عن أحلام اليهود ووعد بلفور وعن هرتزل ؛ وكنت فى تلك السنوات أصغى اليها ولا أدرك أبعاد أحاديثها بسبب انشغالى بالقضية الوطنية فى مصر حتى النخاع .

بعد سنة على تعارفنا ، قالت لى ذات مرة ، انها لن تقدر بعد اليوم على زيارة عائلة هرارى ، وتعجبت من قولها ، فقد

تعرفت عليها عند هـذه العائلة التى تقطن بجوارى ، ولم ألحظ أية تغيرات فى سـلوك هذه العائلة ، سوى أنه نما الى علمى أن مشاجرة قد وقعت بين عدة عائـلات يهوديـة فى الخرنفش والعباسية وحارة اليهود ، وأن هرارى الصغير قد أصيب فى صدره بطعنة سكين غير نافذة ، وأن صاحب البيت قد جمع عدة جزارين للأخذ بالثأر والانتقام لهرارى من هؤلاء الذين اعتدوا عليه ، لكن الست أم جمالات نصحت زوجهـا الجزار بعـدم التورط بين طوائف اليهود المختلفـة ، لأنهم سرعان ما تزول خلافاتهم ويعودون الى سيرتهم الأولى ومن الأفضل عدم افساد العلاقات بينهم • وانتصح الرجل لقول زوجته ، واكتفى بتهديد العائلات الأخرى المعادية ، وزيارة هرارى فى المستشفى عدة مـرات •

وسألت ليزا عن سبب مقاطعتها لعائلة هرارى ، فقالت لى ، ان أخاها هو الذى طعن هرارى الصـغير بالسـكين فى صدره ، وأنه لايزال يتربص به وينوى قتله •

كنت أعتقد حتى ذلك الوقت أن اليهود مثلهم فى ذلك مثل الخواجات لا يتشاجرون مع بعضهم البعض ، لكن ليزا أخبرتنى أنه توجد خلافات قوية بين اليهود فى مصر تصـل الى حد القتل لأن بعضهم يؤيد الحركة الصهيونية والبعض الآخر يعارضها بقـوة •

طلبت منها أن تطلعنى على مجلاتهم ومنشوراتهم ، فتنصلت قائلة ، انها تصدر بالعبرية أو الفرنسية ، وحذرتنى من الاشارة الى توطد معرفتى بها أمام فرد من عائلة هرارى •

ذات ليلة صحبت ليزا الى زنوبة الراقصة صديقتى ، وذهبنا الى غرفتها فى شارع محمد على ، ورحبت بنا زنوبة وأعدت لنا طعاما وأدارت عدة اسطوانات ، وسألتنى عنها ، فقلت لها ، ليزا ، فنانة ، وتود أن ترسم لها لوحة وهى ببدلة الرقص •

كانت زنوبة امرأة جميلة الطلعة مشدودة العود • عيناها لوزيتان وشفتاها ممتلئتان • حلوة التقاطيع • وأخذت ليزا تتأمل جسد المرأة فى نهم فى رواحها ولفتاتها وتدرس حركات جسدها الفائر وزنوبة ترحب بها كأنها تعرفها منذ زمن طويل •

وجلست حائرا بين المرأتين ، وحرصت ألا أغازل احداهما أمام الأخرى •

وعند تناول الطعام ، أحضرت زنوبة طبلية ، وتربعت ليزا على الأرض وأسندت ظهرها الى الكنبة ، وقالت بعد ذلك انها لم تتذوق فى حياتها طعاما ألذ من هذا الطعام •

وفور ذهابنا ، أسرت لى ليزا برأيها فى هذه المرأة ، وقالت لى ، انها تفهم الآن سبب عدم ملاحقتى لها مثل بقية الرجال الذين يقرفونها بنظراتهم الوقحة الصريحة .

وقالت لى أيضا ، انها تعتقد أنها تقدم لى أشياء أخرى لا تقدر هذه المرأة على توفيرها لى ، وأنها لا تغار على من هذه المرأة الاسطورية ، وهى سعيدة بالتعرف عليها وأنها تقبل أن أجمع بينهما فى وقت واحد ، وأنها تخلصت من مخاوفها من هذه الناحية .

وكنت قد بدأت فى التردد على ليزا فى مرسمها فى شارع قصر النيل فنقضى وقتا طيبا معا وأتردد على زنوبة أيضا فى شارع محمد على ، وأصارح كلا منهما بذلك دون خوف أو تردد .

بعد عام ، قالت لى ليزا ، انها قد استوعبت الآن تماما معنى كلمة ضرة .. فهذه الكلمة لا مرادف لها فى أية لغة أجنبية تعرفها ، وأنها ربما تكون موجودة فى اللغة العبرية القديمة لكنها ليست متأكدة تماما وان كان من المحتمل أن يكون لهذه الكلمة مرادف فى اللغات السامية القديمة الأخرى .

قلت لها ، أن معرفتى باللغات لا تسمح لى بالفتوى فى هذه

القضية ، لكن هذه الكلمة « ضرة » كلمة غير مستحبة الى نفسي .

قالت لى ، انها قد ملت من لعب دور الضرة وعلى أن أختار بينهما ، هى أم زنوبة ؟ !

كنت فى تلك اللحظة أتأمل صور زنوبة التى رسمتها لها بالألوان وعلى الرغم من عدم معرفتى بالفنون ، غير انني تأكدت أنها قد أنجزت عدة لوحات ذات قيمة فنية ، وأنها قد ملت زياراتى لها ، وكذلك قد ملت زياراتها لزنوبة . وكنت أدرك أن الملل سرعان ما يصيب الفنانين مثلما يصيب بقية الناس ، فأنا أيضا قد مللت عملى فى طنطا فى مصلحة الطب البيطرى ومللت عملى أيضا فى مصلحة التليفونات فى القاهرة ، وكنت قد تعلمت منها أن الاجابة المباشرة على الأسئلة المحرجة ليست هى الطريقة المثلى فى المناقشة ، بل يجب مواجهة السؤال بسؤال ، وسألتها ، هل ترى أنها تسلك سلوك الزوجة بالنسبة لى وأنها مظلومة ؟ !

أربكها السؤال وتريثت قليلا ، ثم قالت لى :

ـ كلا . أنت صديق .

قلت لها أنا أيضا :

ـ لنظل أصدقاء فقط .

تحدثنا قليـلا بعدها ، ثم قالت لى ، انها قد أعـدت لى مفاجأة . وقامت الى ركن من الغرفة وسحبت لوحة زيتيـة ، ووجدت نفسى مصورا بالألوان وأمامى صحيفة ، وسحبت لوحة أخرى ، فرأيت نفسى أقف فى مرسـمها بجوار الدولاب عاريا كما ولدتنى أمى . وتعددت الأوضاع التى صورتنى فيها عاريا تارة من الخلف وتارة من الأمام ، وتأملت اللوحات فى خجل ، وقلت :

ـ هذا لا يليق .

قالت فى برود :

ـ لقد تعريت أنا أيضا أمامك ويمكنك رسم ما تشاء من صور لى عارية ، فلن أغضب .

قلت لها فى غضب :

ـ اننى لا أفهم فى الرسم .

قالت فى برود كعادتها :

ـ يمكنك أن تصورنى .

وقدمت لى كاميرا صغيرة وأخذت تخلع ملابسها قطعة قطعة وبدأت التقط الصـور لها بطريقة محمومة وأطلب منها أن تقف

فى أوضـــاع خليعة غير مقبولة وهى توافقنى ولا تعترض ولكنها أخذت تعد اللقطات ٠

وبعدها طلبت منى التقاط عدة صور وأنا أضاجعها بواسطة المرآة ، وطلبت منى أن أخـــلع ملابسى ، وراقتنى الفـــكرة ؛ ولكننى قبل أن أجذب بنطلونى الى أسفل ، ترددت ، وساورنى الخوف من فعالها ، وأدركت ان هـــذه الفتاة التى تصغرنى بعدة سنوات فى مقدورها العبث بى ، والسيطرة على ٠

انتهيت من تصـــويرها دون أن أخلع ملابسى ، وطلبت منى أن أحمض الفيلم وأكبر الصـــور التى أود الاحتفـــاظ بها ٠ قلت لها ، اننى لا أستطيع تقديم هذا الفيلم الى أحد لتحميضه ، فصرخت فى وجهى ، قائلة :

ــ جبان ٠ جبان ٠ قليل الحيلة ٠

وتركت الفيلم لها ٠

وعندما ذهبت اليها فى الأسبوع التالى فى المرسم ، قدمت لى الفيلم ومجموعة من الصـــور وهى عارية تماما ٠ قالت لى : تفضل ٠ هذه الصور ملكك حتى لا تعتقد اننى خدعتك ، كما أن الصور التى رسمتها لك فى لوحات هى ملكى ، وقد رسمتها لك من ذاكرتى ، ولن أقبل أن ينازعنى أحد فى ملكيتها ٠

كانت حكاية الصور قد بدأت تؤرقنى ، وطلبت منها تمزيقها لكنها رفضت فى عنف ، وادعت أن هذه الصور من صنع خيالها ولن تسمح لأحد أن يستولى على خيالها .

سألتها :

ـ أين حمضت الفيلم ؟ !

قالت :

ـ ذهبت الى أول محل تصوير قابلنى فى الطريق . قلت له ، عندى فيلم وأود تحميضه وتكبير الصور ، وان هذه الصور فنية ، وأننى أرغب فى مراقبة الفيلم أثناء التحميض . وكان الرجل عجوزا ، فدخلت معه الى المعمل ، وغمس الرجل الفيلم فى الأحماض ثم بدأ يتطلع الى فى الظلمة تحت الاضاءة الحمراء الخافتة جدا . قلت له فى بساطة ، هذه الصور كلها لى ، وأنا فى حاجة اليها ، وهى تخصنى وحدى .

قال الرجل فى تأفف :

ـ ولكن .

قلت له فى ثقة :

ـ أنا صاحبة الشأن وهذه صورى وهذا جسدى . وهذه

الصور سوف ترسل الى أحد الأطباء فى الخارج لفحصها ، فأنا مريضة بمرض خطير سوف يقضى على فى شهور .

قال الرجل العجوز فى خبث :

ـ بعد الشر .

فأدركت ان الكذب لن يفيد مع هـذا الرجـل العجوز المجرب ، فقلت له ، ماذا تريد ؟ !

قال لى لؤم :

ـ أود نسخة من كل صورة خاصة الأخيرة منها .

قلت له فى بساطة :

ـ ولمـاذا نسخة من الصور اذا كان فى مقدورك امتلاك الأصـل ؟ !

وفى لحظات كنت قد تخلصت من ملابسى ، ووقفت بجواره عارية تماما ، فأخذ يتحسسنى بيد معروقة وقد افتر ثغره عن ابتسامة كبيرة وكانت له سنتان فى فمه تلمعان ، وأحسست به كطفل مشاكس . وغمرنى فيض من العواطف نحوه لم أحس به من قبل ، فتناولت يده المعروقة ووضعتها على صدرى ، فتريث قليلا ، وأخذ يحتضننى .

كان أنفه كبيرا ، وبشرته سمراء مثل رجال النوبة ، تقاطيع وجهه مليئة بالحيوية • عيناه يطل منهما شعاع ساحر • رأيت فى هذا الرجل أبا الهول • عشقت هـذا الرجل ، وبكيت على كتفـه •

بعدها قلت له :

ــ اننى مريضة وسوف أموت قريبا •

وذلك لكى أبرر بكائى على كتفه ، فصـدقنى هذه المرة ، وأخذ هو أيضا يبكى بحرقة •

كانت ليزا تحـكى لى هـذه القصـة وأنا استمع اليها مشدوها • أمسك بالصور فى يدى وأتأمل كلماتها ولا أدرى اذا كانت تسخر منى أو تثير غيرتى ، لكننى كنت أعرف من عملى فى الأرياف ان للرجال العجائز سحر خاص على الفتيات الجميلات يفوق فى بعض الأحيان سحر الشباب عليهن •

وتناولت الصور ووضعتها فى جيبى ، وقلت لها ، اننا لن نتقابل ثانيـة قبل عدة أشـهر ، فقد نقلت الى وظيفـة خارج القـاهرة •

نظرت فى عينى ، ثم قالت :

ــ أنت تكذب •

قلت لها :

ـ ربمــا •

قالت لى :

ـ انها تعشــق الكذب • وتحب الكذابين • فالحيــاة ذاتها أكذوبة كبرى • ولا يصدق شىء فى هذه الحياة ســوى الخيــال •

أشارت بيدها الى مجموعة اللوحــات التى صــورتها لى عاريات ، وقالت :

ـ أنظر • هذه هى الحقيقة الوحيدة فى العالم •

قلت لها وأنا ألوح بقبضتى :

ـ تراودنى رغبة قوية فى ضربك ضربا مبرحا •

قالت لى :

ـ يا ليتك تفعل هذا الآن ، لأنه سوف يأتى يوم تتمنى فيه اطلاق الرصاص على ، ولكن للأسف لن يكون فى مقدورك تحقيق هذه الرغبة •

قلت لها خائفا من فعالها :

ـ لم أفهم • ماذا تقصــدين ؟ !

قالت لى :

ــ لا تتعجل الأمور •

ومضت الشهور رتيبة •

وذات مرة عرفت أن ليزا سافرت وأنها قد تركت لى رسالة عند زنوبة • اعتقدت فى البداية أنها قد تركت لى عنوانها وأنها قد سافرت الى باريس وسوف تعود ثانية ، ولكن رسالتها لم تفصح عن شىء ، وفور قيام حرب فلسطين بعدها بعدة أشهر ، وهروب اليهود من مصر ، أدركت أن ليزا قــد ســافرت الى فلسطين ، وأنها كانت تخدعنى طوال الوقت •

كان أخى الأكبر هو الذى اقترح بنـــاء مقبرة خاصــــة بالأسرة ، فاشترى الأرض ، وبدأ فى اعداد ترتيبات البناء .

فى البداية اختلفت الأسرة حول هــذه الفكرة ، بعضهم تحمس وبعضهم تشاءم ، ووجدتنى من المتحمسين لفكرة المقبرة وقررت أن أحيطها بالأشجار وأحواض الورد ، وأن أبنى نصبا عاليا وأضـــع عليه تمثـــالا ، وكنت أعرف أن اخوتى ســـوف يعترضون على هـــذه الكماليات وقررت أن أتحمل نفقاتهـــا بمفردى . فالمقبرة بدون واجهة رخامية وأشجار عالية لا تعد مقبرة .

وتجاوز ثمن الأرض الألف جنيه ، وقدر المقاول تكاليف البنـــاء بألف أخرى ، وأخبرنى صـــديق له خبرة بالحـــدائق

انني فى حاجة الى مائة وخمسين جنيها لتجميل مدخل المقبرة والفضاء الخارجي بالنباتات والورود ٠

وتسلم أخي الأكبر الأرض وقام بتسجيل العقد فى البطريركية وفقا لقواعد امتلاك أرض المقابر ، وسدد الثمن نقدا نيابة عنا ، وأعد الرسومات الهندسية ، وتعهد والدى بسداد نصيبهما من الثمن أيضا ، وباعت والدتى نصف مصاغها الذهبى ، أما أختى الصغرى فقد حزنت حزنا عظيما ٠

وبدأت أحاديثنا تدور فى معظمها حول المقبرة وبناء المقابر ، وكان أخي الأوسط يستعد للزواج فبدأت عائلة خطيبته تشاركنا الحديث حول المقبرة وتكاليف بنائها ، فقد كانت من مفاخرنا ، فأسرتى تسعى أو نجحت فى امتلاك مقبرة خاصة بها ٠ واسترجعت الأسرتان حوادث مؤسفة عن أثرياء من العائلة ماتوا فجأة دون تحسب لهذا اليوم ، فدفنوا فى مقابر « الصدقة » ففى العام الماضى رفض حنا وهو من أقاربنا دفن حرم صديقه مجلع فى مقبرته ، وتهرب من وعده ساعة الدفن ، وادعى أنه قد نسى المفتاح ٠ لكنه صرح لوالدى بعد ذلك ، بانه يتشاءم من فتح المقبرة فى بداية العام ، فالمقبرة اذا فتحت فى بداية العام فلن تكتفى بجثة واحدة ، وتبدأ فى سحب الأحياء واحدا بعد الآخر ٠

وزعمت والدتى أن حنا رجل خسيس من مصغره ، فعلى الرغم من انه يقوم بجمع التبرعات للكنيســة كل أحد ، وانه يعاون الأب سرجيوس ويصحبه عند زيارة المرضى ، ويحمل له البخور ، ويؤدى الطقوس ، فهو رجل خسيس ونذل .

وتوقف حنا عن زيارتنا ، لكن أخى الأكبر كان يتصل به سرا لأنهاء أمور المقبرة . وكان حنا يقول لأخى ان أهم شىء فى هــذه الحيــاة هو تأمين بيت الآخرة ، وتعلمت منه آداب الحديث عن المقبرة ، فعندما يتحــدث الى أبى ، يطــلق على المقبرة « التربة » ويقرنها بكلمــة محببة دائما ، كأن يقول موضع الراحــة الأبدية ، أو عندما يستريح العبــد الشقى من عذابات الدنيا ويلبى نداء ربه ، ولا ينسى أن يقول حنا لوالدى أيضا ، بعد عمر طويل ، أو عندما يسلم الانســان الوديعة الى خالقها ، لابد له من تربة .

وكان أبى على النقيض من والدتى ، يتفهم مشاعر حنا ، ويتعاطف معه ويقول ان الرجل قد أدى واجبــه نحو دميانة زوجة مجلع ، فقد فتح لها مقبرة خاصــة بأطهار الكنيســة والقديسين . واشتكت والدتى حنا للأب سرجيوس ، لكنــه طيب خاطرها ، وقال لها ، ان الانسان عاجز عن مواجهة الشر ، فالخطيئة الأولى فى دمه ، وأن المسيح قد جاء ليحمل عنا خطايانا

ويخلصنا ، وظل حنا يتودد الى والدتى بعد كل صـــلاة ، ويقول لها فى ود ، السماح يا مقدسة ، أنا اخطأت ورب الكنيســـة رب سماح ومحبة ، فتشيح بوجهها عنه ، وترد عليه بكلمات قاسية . وحنا يمت الى والدتى بصلة قرابة بعيدة ، وتزعم أنه كان يود الزواج منها فى شبابها ولكنها كانت ترفضـــه بشدة لنذالته ، وقد فضلت والدى الغريب عن العائلة عنه لشهامته ، فيضحك قائلا لها : هـــذه أحداث من ستين عاما مضت . انسى يا امرأة .

فتقول له غاضبة :

ـ من آربعين عاما فقط .

ونضحك جميعا ، ويضحك أبى أيضا منها . وعندما لم يؤيد الأب سرجيوس والدتى فى هجومهـــا على حنـــا ، بدأت تنتقده علانيـــة ، وبدأت تحاســـبه على نذور الكنيسة وتقيد التبرعات فى دفتر خاص .

وذات مرة ادعت أن الأب سرجيوس يدخن السجائر بعد الصلاة ، وأن زوجتـــه تذهب الى شـــاطىء العجمى وترتدى المـــايوه ، فصدمت مشاعرنا ، وانبرى أخى الأكبر مدافعا عن الكاهن ، وطلب من أبى أن يتدخل فى الأمر ، ولكن أمى كانت عنيدة فى صراعها ، وصرحت أنها لن تكف عن مهاجمة حنا حتى آخر نفس فيها ، وأنها على استعداد لتسدد نفقات المقبرة بمفردها

وأنها ليست فى حاجة الى معاونة أخى الأكبر أو مشـــورة حنا ، وباعت بقية مصاغها ورصدت ثمنها للمقبرة •

وكان يضايق أختى الصغرى تدخل والدتى فى كل صغيرة وكبيرة تتعلق بالمقبرة ، وطريقة مهاجمتها لحنا وراعى الكنيسة ، وأنها باعت مصاغها من أجـــل المقبرة ، ولكن حمـــاس والدتى لامتلاك مقبرة كان قد ملك مشاعرها ، فكظمت أختى غضبها على مضض •

وأسهم كل منا فى تكاليف المقبرة فيما عدا أختى الكبرى المتزوجة ، فقد رفض أبى أن يسهم زوجها معنا ، وطلب أبى أن تكون المقبرة باســـمه وأن يوضـــع اسمه على قطعة رخـــام مصحوبا بكلمة من الكتـــاب المقـــدس عليهـــا ، وكانت أختى الصغرى ترى أن مصاغ والدتى الذى بددته من أجل المقبرة هو نصيبها عند الزواج ، أما زوج أختى الكبرى فقد غضب من والدى ومنع أختى من المجىء الينا ، وحزن والدى بعدها حزنا عظيما لحرمانه من رؤية أحفاده الصغار ، أما والدتى فقد كانت تذهب الى زيارة أختى الكبرى سرا فى غياب زوجها •

صـــديقان

قبل أن أشترى المذيـاع أخبرته بنيتى فامتعض قليلا ، وقال لى انه يفكر فى ذلك منذ عدة سنوات ولكنه يؤجل الشراء فى كل مرة بسبب البنتين •

كنت أعرف أنه قد أقسم ألا يدخل المذياع البيت الا بعد زواجهما وستر عرضهما ، وكانت كبراهما عندما استأجرت لى غرفة فى بيتهما على السـطوح فى ذلك الوقت فى العاشرة من عمرهـا •

وكنت بسبب نشأتى الريفية فى قرى طنطا أفهم تخوفـاته وقلقه عليهما من المذياع ، لكنه وافقنى بعد ذلك على رأيى وقال ان المذيـاع قد أضحى ضرورة وعرض أن يقرضنى مبلغـا من المـال فرفضت وشكرته •

ومضت السنون بطيئة قبل أن يصاب الرجل بمرض نتيجة

التخمة ولا يقدر على الوقوف فى محل الجزارة طويلا ، فاستعان بصبى يدعى سنقر لمعاونته فى أعمال الجزارة وسرعان ما زفت الفتاة الكبرى الى الصبى وسكن معهم فى الطابق الأرضى وقد أفردت لهما غرفة خاصة وبقيت أنا على حالى فوق السطوح . وفور أن خطبت الفتاة الصغرى بر الرجل بقسمه واشترى مذياعا وكف عن الصعود الى غرفتى وأضحيت أسهر معه فى الطابق الأرضى .

وقد ظل الرجل طوال هذه السنين يستشيرنى فى أموره الخاصة ويستمع الى مشورتى ، وسرعان ما أصبح جدا ، بينما بقيت على حالى دون زواج ، وبمرور السنوات تغيرت أحوال البيت ودخلت أجهزة التليفزيون والفيديو أيضا الى البيت ، واشترى سنقر سيارة من أموال المحل وادعى أنها تلزمه فى تنقلاته بحثا عن الذبائح ولم تكن له خبرة أو جلد على القيادة فعين له سائقا .

ولما توقفت السيارة أمام البيت فى الحارة لأول مرة أحست العائلة كلها بالزهو وخرجت للنزهة بالسيارة وعادت فرحة فيما عدا صديقى ، وقال لى يومها وهو يقف على رجليه بصعوبة شديدة ، ان سنقر يبدد أموال المحل ، وكان زوج ابنته

الصغرى قد آثر منذ البداية العمل فى محل بمفرده ، فاستدعاه الرجل يطلب مشورته •

وكنت قد أصبت فى تلك الأيام بارتفاع مفاجىء فى ضغط الدم فمنعنى الطبيب من الحركة ومن التدخين وبقيت فى غرفتى والصبية والبنات يصعدون الى ويحضرون لى احتياجاتى من طعام بينما صديقى فى بير السلم قبل دخوله الى غرفته ينادى على معتذرا عن عدم قدرته على الصعود الى فأشكره •

لم أدر ماذا دار بينهم ؟ وكنت قد قررت أثناء فترة مرضى ألا أتدخل فى شئونهم وقلت لنفسى لقد عشت بينهم كواحد من العائلة لثلاثين عاما ، ولم يبق أمامى الا القليل من العمر ، وفى النهاية هم أصحاب البيت وأنا أشغل غرفة فوق السطوح ، ولتكن صداقتى للرجل ومحبتى للصغار دون منفعة أو شبهة •

وعندما قرر سنقر زوج ابنته الكبرى أن يهدم البيت ليبنى عمارة على أن يبيع نصف الأرض ، أقسم الرجل أن يطرده من البيت هو وزوجته وأطفاله الصغار ، وبر بقسمه وطرده من المحل على الرغم من توسلات الجميع ، وطلب منه ألا يقترب من الناحية • وخيمت الكآبة على البيت وحل السكون على بير السلم وعلى الطابق الأرضى بأكمله ، وفقد الرجل القدرة علي المشى •

واقتربت منه ذات مساء ، وقلت له :

ــ اذا كان سنقر له رغبة فى بناء عمــارة فهــذه أيامهم وليست أيامنا .

وسألنى صديقى فى طيبة :

ــ وأين تذهب اذا هدم البيت ؟

قلت مخففا الأمر عليه :

ــ أعود الى طنطا بلدى .

قال الرجل حزينا :

ــ تسافر ولا أراك ثانية !!

قلت له :

ــ تأتى وتزورنى وتزور السيد البدوى .

سألنى ثانية :

ــ هــذا رأيك !

قلت له :

ــ عمارة جديدة أفضل من العمل بالجزارة .

كان الرجل يعرف أننى أكذب لكنه آثر الصمت ، وكانت ساقه تؤلمـــه بشدة ويلفها بعدة أربطة وهو يتحدث الى ، وكان الطبيب قـــد اقترح بتر ســـاقه لكنـــه رفض ، وجلســـت اليه ورأسى تدور •

طلبت زوجته لنا نرجيلة من المقهى المجـاور ، فأخذ الرجل يدخن بينما امتنعت أنا عن التدخين بسبب ضغط الدم المرتفع ، وكان الطبيب قد سمح له بالتدخين والاقلال من الطعـــام الى حد الصـــوم •

قال لى بعد فترة صمت :

ـ تصور أن الطبيب لا يصـــدق اننى من مدخنى الشيشة لمدة تزيد على أربعين عاما !!!

ســألته :

ـ لمـــاذا ؟

قـــال لى :

ـ الطبيب يقول ان المدخن الحقيقى يأكل قليلا ، أما أنا فكما ترى •

وبعد فترة صمت طويلة ، قال لى :

ـ اذا ركب أسانسير فى العمارة الحديدة ، أستطيع الصعود اليك •

قلت له غاضبا دون قصد منى :

ـ عندما يركب أسانسير فى العمارة الجديدة لا أكون أنا من بين سكانها •

تأملنى الرجل مليا ثم نظر بعيدا واكفهر وجهه وصمت وأخذ يسحب الدخان ويبلعه ولا ينظر الى •

ولما مات الرجل بعدها بيومين جمعت حاجياتى القليلة استعدادا للسفر ، فطلب سنقر منى البقاء لكننى رفضت ، وقلت له سوف أسافر لأكون على مقربة من السيد البدوى ، وطلبت منه أن يشترى لى جهازا صغيرا للتليفزيون لأحمله معى الى طنطا ، فوعدنى بذلك ولكنه لم يف بوعده حتى الآن ، كما أننى لم أجد لى غرفة صغيرة مناسبة فى طنطا لأنتقل اليها •

العجـــوز

فى طرف الغرفـــة يجلس رجـل انتهت مدة خدمتـه فى الحكومة ، ويستكمل اجراءات وأوراق خروجه الى المعاش • حصل على ليسانس الحقوق وهو فى الخدمة وبعد أن تجـاوز الخمسين من العمر فلم يفده المؤهل كثيرا من ناحيـة المنصب • ينقل الرجل عينيه بين الموظفين والموظفات دون أن ينبس ببنت شـفة •

عندما التحق بكلية الحقوق كان موضوع العدالة يشغله • لمـاذا ماتت زوجته فى شبابها ؟ لمـاذا لم تنجب له ؟ هل كان يحق له طلاقها ؟ لمـاذا ماتت أثنـاء الغارات على القـاهرة سنة ١٩٥٦ •

قال له الطبيب ان الحرب قد أفزعتها وأثرت على قلبهـا الضعيف لكنه غير متأكد تماما من ذلك فقد كانت حالتها الصحية فى الأسبوعين الأخيرين فى تدهور مستمر •

مدافن الامام الشافعى بالقاهرة مليئة بالأحياء ، فالأهالى يسكنون الغرف المخصصة للزيارات ، وينعسون ويأكلون ويشربون بجوار الموتى • قال لنفسه وقتها :

ــ فور انتهاء الحرب أنقل جثمانها الى مدافن بورسعيد ، لكنه لم يف بوعده حتى الآن •

تعلم من حياته الوظيفية الطويلة فى الحكومة أنه لا شىء يصيب الموظف بالأذى قدر تعلقه بفتاة شابة فى العمل • ويتحدث الى نفسه ويخاطب أعماقه ويرى نفسه واقفا على صخرة عالية فى أرض خلاء يتحدث الى الناس حول العدالة •

يود أن يتشح بمسوح القضاء ويحكم بين الناس بالعدل • يراقب نفسه ويضع يديه فى بؤرة وعيه حتى لا يضرب بهما الهواء وهو يصيح ، فيجذب أنظار الجالسين على مكاتبهم حوله • يضع يدا فى جيبه الأخرى تحت ذقنه بينما يجلس مسترخيا ناظرا الى الأمام ومستندا الى مقعده بظهره •

هو كان شابا أيضا • زوجته كانت فى شرخ الشباب عندما اقترن بها ، وسوف يقول الجميع فيما بعد ، رجل عجوز ماتت زوجته وظل أرملا طوال حياته ثم جن فى الساعات الأخيرة قبل خروجه الى المعاش • ليذهب الى دورة المياه ،

ويصرح لنفسه بما يهوى ، ليتحدث الى ليلى هناك بعين خياله •

قالت السيدة الوكيلة له فجأة فى صوت ينم عن الكراهية :

ـ أستاذ عبد العظيم • يمكنك الانصراف • أنت فى أجازة المعاش •

أدرك الرجل ما يدور فى ذهنها • تطرده من الادارة ، وصمم على تجاهل دعوتها له بالذهاب • لاذ بالصمت ولم يلتفت اليها كعادته • الجميع يجلسون ينظرون اليه • يعرفون أنه سوف يعود اليوم الى منزله ولن يحضر الى مكتبه ثانية ليجلس وسطهم • فقد خرج الى المعاش • وليلى تعرف ذلك أيضا •

أخذ الرجل يسأل نفسه فى جلسته ، لماذا لم ينقل جثمان زوجته حتى الآن الى مدافن بورسعيد ؟

تمنت ليلى له الصحة والمديد من العمر ، فقال لها :

ـ هذه هى الحياة •

لكنه ليس متأكدا اذا كان قد نطق بشيء أم اكتفى بالنظر اليها والتحديق فى وجهها الصبوح دائما •

قبل أن يغادر الغرفة ودع الآخرين ، قال لنفسه :

ـ انه لم يخطىء فى حق زوجته بعدم نقل جثمانها الى مدافن بورسعيد ، فبعد حرب ١٩٥٦ قامت حرب ١٩٦٧ التى خربت فيها مساكن بورسعيد وتهدمت مدافنها ، ثم اشتعلت حرب الاستنزاف ، وبعدها حرب ١٩٧٣ ، وأنه لم يكن فى مقدوره طوال هذه الحروب نقل الجثمان ، وقال لنفسه أيضا وهو يمد يده الى ليلى مودعا ، انه حسنا فعل ، فالحروب القادمة كثيرة أيضا .

أحـاديث جانبيـة

حدثتنى والدتها حديثا طويلا •

امرأة عجوز جدا ، ذهنها متوقد ، ونظراتها فاحصـة • كانت تحدثنى عن صـديقى ، وعن اعجاب ابنتها به ، وترمى ببضع كلمات غامضة وتنثرها وسط الحديث • ثم طلبت منى دعوته الى زيارتهم •

وكان صديقى قد أحس يوما برغبة من ابنتها فى الزواج ، وكان يعتقد أنها معجبة به ، وكانت معرفتهما تعود الى ثلاث سنوات مضت ، فطلب مقابلتها ، وسـألها الزواج ، فنظرت اليه فى دهشة حقيقية ــ كما أخبرنى بعدها ــ ورفضت طلبـه فـورا ، ودون تردد • وقـال لى ان كلماتهـا كانت حاسـمة ولا تحتمل تأويلا ، وهاج وثار ، وابتعد عنها عدة أسـابيع • ولهذا تعجبت من هذه المرأة العجوز لأنهـا تتحدث بثقة كأنه سوف يقبل دعوتها له • وقلت لها متعجبا :

ـ لمــاذا ؟ !

قالت لى :

ـ هى ابنتى وهو ابنى •

قلت لها :

ـ هو غاضب • يطلب الزواج منها وهى ترفض •

قالت لى :

ـ لندع هذا الأمر حتى يحين وقت الحديث فيه •

وكنت أعرف طباع صديقى جيدا واندفاعه ، ولهذا لم أعدها بشىء ، وقلت لها ، اننى سوف أسأله •

قالت العجوز مبتسمة ان هذه هى رغبة ابنتها ، وقالت لى أيضا ، انه عندما يحضر الى زيارتهم ، ســوف تتحــدث اليه وتقنعه برأيها •

وكنت لا أعرف مقصدها تماما ، وأحسست بشىء غريب فى عينى ابنتها ـ وكنت أعرفها جيدا عن طريق صديقى ـ وعندما سألتها رأيها فى أمر هــذه الدعوة ، قالت لى الفتاة ، انها تفضل عدم دعوته هذه الأيام ، لأنه لايزال غاضبا منها •

فنظرت الأم اليها غاضبة ، وقالت لى :

ـ هى طائشة • دعنى أتصرف •

وأخبرت الأم العجوز بمخاوفى ، فربما يغضب من دعوتها له ، وربما يظن أن ابنتها قد غيرت رأيها ثم يفاجأ برفضها •

قالت لى :

ـ انه طيب وسوف يتفهم الموقف •

قلت لها فى ضيق :

ـ انه لا يفهم شيئا سوى أنه يحبها ويود الزواج منها ولن يقتنع بشىء آخر •

قالت المرأة فى ثقة :

ـ اننى لا أعتقد ذلك ، لكننى أعرف ، انها عنيدة جدا •

قلت لها :

ـ ربما هى لا تحبه ، وهذا مفهوم ، ولكنه يحبها •

فمضت العجوز تحدثنى عن حياتها السابقة وتجولها فى الصعيد مع زوجها وحادثة وفاته وزواج ابنتها الكبرى ، وفشل زواج ابنها الأصغر ، وسفرها الى الخارج كل سنة لزيارة ابنتها الكبرى ، وحياتها مع ابنتها الصغرى بمفردهما ، ثم سألتنى ، هل أنا متأكد تماما أنه يحب ابنتها ؟

قلت لها مؤكدا :

ــ نعــم •

وكانت الفتاة تأتى الينا من وقت الى آخر ، تقدم لى شيئا أو تلقى بكلمة ثم تتركنا • وكان وجهها جامدا ، عليه ابتسامة خفيفة شاحبة لا تفصح عن الرضا أو الغضب ، ترتدى ملابس بسيطة أنيقة ، شعرها ينسدل على كتفيها وتنظر الى ، فلا أعرف ماذا يدور فى عقلها ؟

وقالت الأم لابنتها :

ــ ما رأيك ؟ انه يحبك •

قالت الفتاة وهى تغادرنا :

ــ لا أعرف !!

كنت أرقب الأم وهى تتحدث مع ابنتها ، وتأكدت أن عينى الفتاة تشبهان عينى والدتها وأن تقاطيعهما واحدة ، ورغم تقدم الأم فى العمر ، فقد كان وجهها به مسحة من جمال سابق تفتقده ابنتها فى شبابها • وكنت أحس بالحرج ، فقد كان صــديقى حزينا وغاضبا ، وكانت الفتاة تتحدث عنه ببرود • وحل علينــا صمت كئيب لا يقطعه سوى كلمات ترحيب من الأم ، واعتذرت عن البقاء حتى العشاء ، وقبلا عذرى ولم يلحا على بالبقاء •

في الطريق أخذت أستعيد شتات الحديث ، وقلت لنفسي ، اذا أردت أن أخبره بما دار بيننا ، ماذا أقول له ؟

وكانت الأحاديث بيننا قـد تشعبت ، ومست مواضـيع متعددة لا تخصه وتتعلق بأزمة المواصلات والسكن والعمـل والغلاء والحر ، وأخيرا انتهيت الى أنه يتعين على أن أروى له كل شيء بدقة منذ دخولي الى المنزل حتى لحظـة خروجي منه .

ومضيت بعدها أروى لصديقى حديث الأم بدقائقه ورأى الفتاة وهو لا يقاطعنى وعندما انتهيت من حكايتى ، سألنى ، قـال :

ـ وأنت . ماذا فهمت من كل هذه الأحاديث ؟

قلت له :

ـ والدتها تصر على دعوتك لزيارتهما في البيت .

قال لى فجأة ، اننى أحمق ، واننى سـوف أظل أحمق طوال حياتى ، وضايقتنى الاهانة ، وسألته ، لمـاذا ؟

قال لى :

ـ هذه العجوز امرأة شريرة . .

نفيت ذلك بشدة عنها ، فقال لى :

ـ هذه العجوز قد أفصحت عن نواياها بحكمة وقد فهمت مرادها وبلغتنى الرسالة •

وكنت قد نسيت أن أخبره بأنهما فى صدد شراء سيارة جديدة ، فقال لى :

ـ لابد أنهما قد أفصحا أيضا عن نيتهما فى شراء شقة فى المعمورة •

قلت له :

ـ كلا •

قال لى :

ـ أو عمارة فى المعادى •

قلت له :

ـ ماذا تقصد ؟

ولم أكن أخبرته بقصة شراء السيارة الجديدة ، فقال لى ، انه لا يقصد شيئا •

بعد قليل ، قلت له :

ـ الأم تنوى السفر الى الخارج فور انتهاء الصيف •

قال لى :

ـ هذا يعنى أن الفتاة ترغب فى الزواج قبل حلول الشتاء ضد رغبة أو مشيئة والدتها •

وهكذا أخذت أحاديثنا تدور فى حلقة مفرغة ، فقلت له ، ان الأمور قد أصبحت واضحة ، وأن الفتاة ترفض الزواج منك ، ولاشى آخر •

قال لى فى أسى :

ـ نعـــم •

وطلبت منه أن ينسى الموضوع برمته ، فقال لى :

ـ لا أقـــدر •

وتفهمت مشاعره غير أننى كنت قد مللت الحديث فى هذا الموضوع ، ورأيته مندفعا ، أحمق فى حبها ، وأن الفتـــاة موقفها واضح منه ، ومصرة على الرفض فى الوقت الذى يجرى فيه هو وراء الأوهام ويسبب لها الكثير من المتاعب •

وبدأت أتعاطف مع الفتاة فى موقفها الواضح ، وعندما سألته بعد عدة أســـابيع ، عما اذا كان لايزال يحبهـــا ، رفض اجابتى ، وقال لى ، اننى شرير • واتهمنى بعدها أننى قد أسأت فهم حديث أمها بسبب ســـوء نيتى ، وتعمدى ، وأنه كان يتعين على أن أخبره بالحقيقة •

وكان غاضبا . وأخذ يسبنى ويتهمنى بالخـداع والنفاق، فغادرته حانقا ولم أرد عليه ، ولم أجد جدوى من مناقشته .

فى اليوم التالى ، سألتنى الفتاة عنه ، فقلت لها :

ـ لا أعرف شيئا عنه .

فقالت لى :

ـ أنت تكذب .

قلت لها غاضبا هذه المرة غضبا حقيقيا :

ـ أنا لا أكذب .

فاكملت حديثها ، قائلة ، اننى شرير .

ولم أعد أفهم شيئا مما يدور حولى ، لكننى أدركت من لهجتها أنه قد أخبرها بشىء ما . شىء قد أخفاه عنى بالأمس وهو يحدثنى عنها . وكانت نبرة الغضب والضيق واضحة فى صوتها ، فابتعدت عنها دون مناقشة ، وقلت لها :

ـ لننس الموضوع برمته .

فاقتربت منى مترددة وهى تقول :

ـ لا أقـدر .

قلت لها فى ضجر وقد اتهمتنى بالكذب ، اننى لا أعرف شيئا ولا أود معرفة الموضوع برمته •

غلفت صوتها برقة ومسكنة ، ولمع التوسل فى عينيها ، وقالت لى :

ـ لا تكن شريرا •

وأخذت تروى لى حديثها الأخير معه ، وسبب ترددها فى الزواج وأشياء كثيرة عن والدتها ، وكنت أرى الأمر كله لا يعنينى ، غير اننى أستمع لها فى شغف حقيقى •

وسألتنى بعدها :

ـ هل لايزال متمسكا بى ويحبنى ؟

قلت لها ضاحكا ، فى مقدورها سؤاله بنفسها ، فقالت لى :

ـ أنت صديقه وتعرف كل شىء عنه •

قلت لها فى ضيق :

ـ هذه الأحاديث كلها قد أصبحت مملة ولا معنى لها ، واننى سوف أقطع علاقتى بكما •

فقالت لى ، اننى أمزح ، وافترقنا وأنا عازم على مقاطعتها •

في اليوم التـــالى ، دعتنى والدتهـــا لزيارتهما مســـاء ، فاعتذرت بشدة ، فادعت انني قد أسأت فهم كلمـــات ابنتها ، فقلت لها ، ان الأمر كله قد أصبح لا يعنينى البتة • فقالت لى المرأة فى مكر ، انه صديقك •

قلت لها غاضبا :

ـــ نعم هو صـــديقي • ولكن الأمر يخصـــه وحده • ويمكن حسم الأمر معه بالرفض أو القبول •

قالت لى المرأة :

ـــ نعم • ولكن فيما بعد •

وأضافت انها تود الحديث الى قبل حسم الموضـــوع ـــ وكأنه لم يحسم بعد ـــ وان ابنتها هى التى طلبت منها دعوتى على العشـــاء وذلك لأمر هـــام ، وعلى أن أصـــدقها • لكننى رفضت الدعوة بشدة ، ولم أجد معنى لذهـــابى اليهما لنجتر ذات الأحاديث • وعندما وضعت سماعة التليفون ، أحسست بأن هذه المرأة العجوز شريرة ، وأن صـــديقى كان على صواب فى قوله ، وأنها تدبر شيئا خفيا ، وحاولت أن أنسى الموضـــوع ، لكننى لم أقدر •

وكانت زوجتى تربطها بالفتاة ووالدتها علاقة قرابة بعيدة ، فسألتها عن رأيها ، فقالت لى فى لهجة جادة :

ــ هل يحب صديقك الفتاة ؟

وغاظني سؤالها ، وقلت لها :

ــ طبعــا .

فطلبت مني أن أبتعد عن الفتاة ؛ وأن أتحــاشى الحديث اليها فى هذا الموضوع ، ونصحتني بتغيير عملى والانتقــال الى المركز الرئيسى بعيدا عنها ، ورأيت زوجتى تغار من الفتــاة ، لدرجة أن تنصحنى بترك عملى ، وكنت أعرف أنها تكره الفتاة ووالدتها ، فقلت لنفسى :

ــ لا بأس . وصمت .

وفجأة قالت لى زوجتى غاضبة :

ــ صديقك يكذب . وأنت شرير مثله . وان الفتاة على صواب فى ترددها .

قالت هذه الجملة الطويلة فى نفس واحد كأنها قد حضرتها من قبل لترميها فى وجهى . وكانت عصبية الى الدرجة التى اقتنعت فيها بأننى شرير وأن صديقى يكذب ولا يحب الفتــاة حقيقــة .

وطلبت منها أن تنسى الموضوع .

فاتهمتنى غاضبة ، باننى لا أقدر الموقف تماما .

العين مرآة الجســد

جذبتنى اليها وبدأت لقاءاتنا تتعدد . هى نحيلة القوام ولها وجنتان بارزتان وشفتان رقيقتان وعينان واسعتان ، وأنف كبير معوج يميل قليــلا الى اليمين ، وشامة ســوداء أســفل الرقبة عند أعلى الصدر .

هى طويلة القامة . رقيقــة الأرداف . ضــامرة الثديين . شعرها يتساقط بكثرة . لكن وجهها فيه كل السحر فوجهها وجه أيقونــة .

منذ خمس سنين رويت لصديقى ابراهيم شيئا عنها ، وهو رجل سياســة منذ شبابه ولكنه قد كف عن السياسة بعد حرب أكتوبر ، وسألته ماذا أفعل ؟

فطلب منى أن أصفها له بدقة ، ففعلت ، وأخذت أصف له جسدها جزءا جزءا .

وتناول ابراهيم كوب الشاى ــ وكنا نجلس وقتها على مقهى « ريش » وقال لى فى لهجة حاسمة ، انها تشبه الأيقونة فعلا ، ولكنه قد تعلم من كثرة دخوله المعتقلات ووقوفه أمام المحاكم ، أنه لا يمكن التنبؤ بتصرفات الأفراد من تأمل ملامح وجوههم . وقال لى أيضا : مخابرات العالم كله قد أدركت هذا الدرس منذ سنوات الحرب الأولى .

قلت له معارضا ، ان جمال عبد الناصر كان يفحص بنفسه صور الزعماء ويحدد مواقفه منهم قبل استقبالهم .

فقال لى ضاحكا : هذه أقوال صحافية .

سألته : ماذا يقصد ؟

فقال لى : انه لا يقصد شيئا .

وكنت لا أنوى مناقشته فى السياسة أو سيرة جمال عبد الناصر بطبيعة الحال ، فقد كنت أعرف رأيه فى سيرته ، وكل ما كان يشغلنى هو أيقوتنى وعيناها الواسعتان الشاخصتان ، فغادرته وأنا لا أحس براحة لقوله .

وذهبت الى صديق يعمل بالتدريس ، ورويت له القصة ، فقال لى فى دهشة حقيقية :

ــ عجيب أمرك يا مينا . ألم تقرأ التوراة ؟ !

قلت له :

ــ بلى •

قال لى :

ــ العين مرآة الجسد يا مينا •

وراقنى القول ، العين مرآة الجسد ، كأننى أسمعه لأول مرة فى حيــاتى • وسألته رأيه فى قول ابراهيم •

فقال لى :

ــ هذا رجل قد ضــل طريقه ، فعمل بالسياســة بدلا من العلم • أنظر فى عينيه ، ماذا ترى ؟ ترى نبوغا وعبقرية •

قلت له غاضبا :

ــ هذا رأى مغرض ، مرجعه خلافات مذهبية • وأن عينى ابراهيم لا تعبران عن شىء مطلقــا ، وأن قــدراته كلهــا فى لسانه •

قــال لى :

ــ هذه حماقة يا مينا ، فالعين مرآة الجسد •

وقلت لنفسى ، اذا أصــاب ابراهيم فى قوله ، بأن العين

ليست مرآة المرأة ، فاننى من الخاسرين ، أما اذا صـــدق قول التوراة معى ، فربما أظفر بها •

***

وسارت الأيام والأسابيع والشهور حثيثة ولم تفصح عيناها عن شيء محدد ، وعدت الى صديقى ســـلامة أسأله المشورة ، فروى لى شيئا عن تجـــاربه العاطفية ، وعجبت من أمرى ، فقد كنت لفرط بلاهتى لا اشغل بالى به معتقدا أنه قد بلغ الخمسين من العمر وقد زهد فى الزواج • وأيقنت منذ تلك اللحظـــة أن العين ليست مرآة لشيء ؛ فعينا صـــديقى ســـلامة كانتا دائما فرحتين ، بهما لمعة وبهجة •

والآن وقد فرغ الحب ، وقد استرجعت حيـــاتى ، فلابد من البحث عن الحقيقة ، أما الأيقونة أو زهرة الأركاديا ، فاسمها لن أعلنه الى حين زواجها ، وعندئذ ســـوف تتكفل هى بانكار كل شيء •

قلت لها ذات مرة ، لندع هذه الأمور •

فرفضت قولى ، وقالت انها اذا أرادت الزواج ، اختارت كهـــلا ثريا فقلت لنفسى ، بئس الفتـــاة أنت • ونظرت اليهـــا متعجبا • ومن هذا المنطلق ، ربما صدق سلامة فى قوله ، ان

العين مرآة المرأة ، فقد كان فى عينيها طموح ، وكأنها تجرى نحو نهاية محتومة فى سباق خاسر .

لكن الحب مفسدة ، وأعمى القلب من يحب امرأة واسعة العينين ، وقد كنت أنا هذا الرجل الأعمى .

ذات مرة ، سألت صديقا لى يعمل بالقضاء ، وهل يرى شيئا فى عينيى المتهم ؟

فقال لى انه فى عمله دائما يهتم بالوقائع المادية فقط ، وان رجال الأمن قد يهتمون فى المراحل الأولى من التحقيقات بمتابعة عينى المتهم واتجاهات نظراته ، وحركات يديه ، أما الوجوه فليست لها قيمة كبرى لديهم .

وكنا فى المقهى نطلق على صديقى هذا صفة نابية — رغم ذكائه وتفوقه — ونصفه بأنه رجل خفيف العقل .

وكنت أحدثه عن الفن القبطى والنظرة الشاخصة إلى الأعلى ، والوجوه العذبة ، والاضاءة الداخلية ، فيقول لى ساخرا :

— هذه أوهام يا مينا ، فالوجوه ليست عذبة . ولا توجد اضاءة داخلية وأخرى خارجية ، والأمر كله يتعلق بحب امرأة

ما ، وسـوف يبقى الحب لفترة ثم يمضى كمـا مضت الأيام السابقـة •

وانني أعتقد أن خفيف العقل ـ كما كنا نطلق عليه ـ كان مصيبا فى قوله ، غير أن عمق الأسى لا يعرفه غير صاحبه •

وعندما أعود الى أقوال أصـدقائى ، وأتذكر ما جرى لى منها ، أجد واحدا منهم كان صريحا معى للغاية ، وقاسـيا معى قسوته على نفسه ، فقد قال لى عدة مرات :

ـ لا تضع أصبعك تحت ضرس امرأة يا مينا •

وقال لى صديقى أيضا :

ـ هذه الفتاة لا تحبك ، واذا أحبتك لن تتزوج منك •

وكنت أعارضه ، فيبتسم ، ويقول لى ضاحكا :

ـ سـنرى •

وها هى نبوءته قد تحققت ، فقد تزوجت من ثرى يكبرها بخمسة وعشرين عاما ، وقد سـمعت لتحقيق شىء ما ، شىء لا أعرفه ، فهى ثرية وليست فى حاجة الى مزيد من المـال ، فهل هو الطمع ؟ لا أعرف !!

وسألت صديقى عن فكرة الاتصال بها بعد اعلان خطبتها ،

فحذرنى من مغبة ذلك ، ونصحنى بالابتعاد عنهـا كلية ، ونسيان الأمر برمته •

قلت له :

ـ ربما تخجل من فعلتها •

فأجابنى فى سخرية •

ـ أنت واهم • انهن يذهبن الى السينما ، ويتأثرن بفراق البطـل ، وتدمع أعينهن طويلا ، ولكنهن عند الزواج يقررن شيئا آخر •

قلت له فى سذاجة مبتسما :

ـ وبعد الزواج •

قال لى ضاحكا :

ـ يفعلن أيضا شيئا آخر •

وصدقى علم النفس هو مجال تخصصه ، وهو سر بروده أيضا • وعندما كنت أسأله الرأى فى مشـكلة ما ، كان يفاجئنى دائما برأى لا أتوقعه ، ثم تثبت لى الأيام فيما بعد صحته • لكننى كنت مدفوعا اليها ، ففى ملمس قدميهـا أحس بنعومة الرحم • وكنت أطلب منها أن تحملنى فى داخلها ، وأن تجعلنى أعشش فى رأسها ، فتقول لى غاضبة :

ــ أمجنون أنت ؟

فأقول لها :

ــ نعـــم .

* * *

« العين مرآة الجسد » أو « العين مرآة المرأة » ، أرقنى هذا القول كثيرا دون جدوى . وعندما أعود بذاكرتى الى عدة سنوات مضت ، أرى أن اتساع عينيها لم يكن هو سر اندفاعى نحوها ، وأن رؤيتى لها كأيقونة لم تتم عند بداية تعارفنا ، بل جاءت فى فترة لاحقـــة ، وبطريقة عفوية ، وبدون قصـــد منى . وان سر اعجـــابى بها فى البداية كان مرجعه الى جمال كتفيها . فقد كنت أحيطهما بيدى ، وتسألنى عن رأيى فى النسوة ذوات الصدور البارزة ، فأقول لها ، اننى لا أحب ضروع الأبقـــار ، فتبتسم ، راضية عنى .

وعندما افترقنا فى آخر لقاء لنا ، ودعتنى دون أن تحدق فى وجهى ، وكانت تحمل لفافة كبيرة وهشة فى يدها ، وعندما طلبت حملهـــا عنها ، رفضت بشـــدة ، ومنعتنى أن ألمسهـــا ، ورفضت أن تصرح عن شىء عن محتوياتها .

والآن وبعد سنة كاملة من زواجها ، في مقدوري أن أعرف ماذا كانت تخفي في داخل اللفافة ؟ فقد كانت تسير الى جواري بعد أن تناولنا القهوة في « جروبي » ، وهي تحمل طرحة الزفاف البيضـاء لتزف بها الى رجل آخر • هـذا ما قـد صرحت به لصديقـة لها فيما بعد ، وقالت لها ، انها كانت تشـعر طول الوقت بسكين في صدرها •

وفور سماعي هذه القصة من صديقتها ، ذهبت الى سلامة غاضبا من نفسي ، وقلت له •

ـ مالي قد أصبحت غبيـا الى هـذا الحد ؟ لقد أعفتني حبيبتي من حمل طرحة زفافهـا من رجـل آخر وكنت لفرط سذاجتي ألح عليها ، وهي ترفض •

قال لي سلامة مهدئا :

ـ دعها • سوف تندم على فعلتها •

وأخذ يحدثني عن شقة صغيرة في حلوان ينوي استئجارها وقد دفع من أجل الحصـول عليها كل ما يملك ، وسألته :

ـ هل تصلح هذه الشقة للزواج ؟

ـ فقال لي آسـفا :

ـ كــلا .

وكنت قد فقدت الأمل فى العثور على شقة مناســبة لى ، فاستمعت اليه صاغيا ، وعندما سألته ، مغيرا الحديث بيننا ، هل العين مرآة الجسد ؟

قــال لى :

ـ نعــم .

وكان سلامة خائفا من الموت كعادته ، وأخرج من جيبــه فجأة عدة قصاصات من الصحف ، وأخذ يقرأها ، وكلها تتعلق بحوادث قطارات فى سيبيريا وكينيا ويوغسلافيا والقاهرة .

وقرأت هذه القصاصات وضحكت . ونظرت فى عينيه ، فوجدته خائفا . وقلت له ، ان آلاف البشر يذهبون ويجيئون يوميا الى حلوان بالقطارات .

وقلت له فى ذات الجلســة ، ان صدقى يعتقد أن بعض الفتيات يفضلن العجائز .

فقال لى ، ونحن نحتسى البيرة ، ان صدقى رجل أحمق ، وزعم أن عينيــه تشبهــان عينى الســمك الميت فى لونهمــا وشكلهما . وقال لى أيضا وهو يعب البيرة ، ان تبلد الأحاسيس التى تميز صدقى ، سمة فى جميع أهل قريته ، فدون قرى الصعيد

بأكملها ، رجال هـذه القرية يتميزون ببلادة الحس ، ونساؤهم يتمتعن بحرية قل أن تتمتع بها امرأة فى صعيد مصر .

ووافقته على رأيه . وقلت لنفسى :

ـ حقيقة العين مرآة الجسد ، ففى عينى صدقى جحوظ يشبه عينى السمك الميت ، وعندما يتكلم فى شىء يتكلم فى رتابـة .

* * *

وعندما أعود الآن الى أوراقى بعد عدة سنوات ، وأتذكر الطريقة التى حدثنى بها صـدقى عن حماقاتى وطيشى لعشقى لمنار ولهفتى عليها ، أدرك ما حدث .

ففى صباح وجد صدقى منتحرا فى غرفته .

طقـوس الخـريف

- ١ -

على الأرصفة أقف طويلا فى الظهيرة ، أرقب السيارات وهى تندفع بجوارى ، فى حذر ، وأعبر الطرقات ، طالبا النجدة •

ان الجو فى القاهرة دائما يميل الى الثبات ، وتبدأ سعادتى عند قدوم الشتاء ، فور سقوط الأمطار ، ويكون ذلك عادة ، قبل ، أو بعد عيد الميلاد بقليل •

فى صباى . كان عيد الميلاد له وقع خاص علينا ، ونحن نقطن فى مصر القديمة بجوار الكنائس الأثرية ، وكنا نحتفل به عدة مرات ، ثم تدهمنى حالة من الكآبة طوال الربيع المترب ، وتستمر معى حتى حلول الصيف •

لى صديق قارىء من طراز غريب •

له قدرة على الغوص فى باطن الصفحات وفهم ما استغلق منها من النظرة الأولى ــ وكانت أحاديثنا تدور حول قضايا أدبية ، وكانت له قيمه النقدية الخاصة به ، وكنت أنا دائما أرى شيئا آخر ، لا أقدر على وصفه فى سهولة مثله • كنت أقرأ الكتاب فى الشتاء فيروقنى ، وأعيد قراءته فى الصيف فأنبذه ، والفرق بين الشتاء والصيف عندى لايزيد عن عدة ساعات ، ففى الظهيرة عندما يكون القيظ شديدا ، والبخار يتصاعد من الأرصفة ساخنا ، والعرق يسيل على وجهى ، يكون لى رأى مخالف لما أحسه فى الليل أو فى الفجر ، عندما تهب نسمات رطبة ، ويصفو الجو ، ويزول العرق ، فعادة أكون فى ساعات القيظ أكثر دقة وحساسية ناحية الأعمال الأدبية ، أما ليلا ، فيروقنى الحديث فى السياسة ، ولكننى غالبا ما كنت أدلى طوال النهار بآراء عقيمة أكون قد قرأتها فى الصحف وآخذ فى ترديدها فى بلاهة أمام الآخرين ــ أما آرائى الحقيقية فكنت لا أصرح بها الا لنفسى صباحا ، وأنا أسير بمفردى •

الأوراق القديمـــة

تعودت على كتابة يوميات لى منذ الصغر ، ثم توقفت لعدة سنوات قبل هزيمـــة ١٩٦٧ بسبب خوف داخلى دهمنى بعد القاء القبض على صديق لى وهو جالس معى فى شـــارع جانبى على مقهى شعبى •

كان وقتها الجو صيفا ، قبل الغروب ، فأقبل علينا رجل ضخم بدين ، وربت على كتفـــه من الخلف ، وهمس باسمه ، وطلب أن يتحدث اليه ، وعندما قام معه ، أحاطه الرجل البدين بذراعيه ، وأحاطت بهما فجـــأة مجموعة كبيرة من الرجال ، ودفعوه للركوب فى سيارة •

وعندما أرجع الى أوراقى ، أجدنى كنت أتجاهل الاشارة الى أحاديثنا معا ، كأننى كنت أتوقع القبض عليه ، ففى داخلى دائما أرنب يقظ مذعور ، يكاد الحـــذر يقضى عليه من شدة

الخوف ، ولكننى أيضا مقـامر بطبعى ، فالأوراق مليئة بأدلة الاتهام ضـدى ، فحرصى الزائد هـذا عملة زائفـة ، فأنا عنيد عناد الريح عندما تعصف ، وعندما صارحت عنايات بحبى لها ، كان قرارى مفاجئا وحاسما ، وطلبت منها أن تحسم الأمر كله ونحن جالسان فى مقهى الفيشاوى نحتسى الشاى •

وعندما أعود الى أوراقى بعد كل هـذه السنوات ، أجد فى الأوراق شيئا غريبا عني : كنت قد نسيته • شيء ما كانت له ملامح وتفاصيل تلاشت وذابت منذ عشر سـنوات أو يزيد ، هذا الشيء ، هو أنا •

والآن عندما أعيد قراءة أوراقى تدهشنى أقوالها ، فقد كانت تدرك منذ البداية أننى أقامر ، وأننا لن نتزوج ، والمدهش فى الأمر كله بالنسبة لى ، انها كانت تدرك أيضا أنها تحبنى ، وأن عجزى عن الزواج منها ليس له علاقة بدياتتى •

اللغــة اليابانيــة

يراودنى دائما احساس بأن ذراعى طويلتان ، وبأن كتفى قد أصبح مقوسا ، واننى لا أقدر على السير بدون عصا .

وكنت أعرف أن عدة أوهام تدهمنى فى الصباح الباكر ، فور نزولى الى الطريق ـ خاصــة فى الليالى التى أنعس فيها جيدا ولا تأتينى فيها أحــلام تذكر . فغالبا ما أجد جســدى متخشبا عندما أستيقظ ، فأضــع الحذاء فى قدمى بصعوبة ، وأهرول الى الخــارج ، كى ألحق بالقطار .

وأحاول تذكر ما حــدث لى بالأمس أو أول أمس دون فائدة . ويكون كل شىء فى داخلى ساكنا راكدا ، ولا أجد شــيئا أتذكره طوال الطريق ، بينما القطــار يهتز بى ، أما فى الليالى التى تدهمنى فيهــا كوابيس ، أستيقظ مبكرا ، وأنــا قلق وأذهب الى عملى فى موعدى ، وأظل طوال اليوم حذرا من شىء ما ، ربما من السيارات أو من غضب رؤسائى ، أو من

سرقة حافظة نقودى . وفى مرة تنبهت الى أن شيئا ما دائما يقع ، وأقرأ عنه فى الصحف فى اليوم التالى .

ولكن معظم الأيام تمر بى فى رتابة ، فأجد نفسى فى العمل بين عدة نسوة ، طوال النهار يتحدثن دون أن يلتفتن الى . واذا تحدثت اليهن فغالبا ما يبتسمن ، ويقلن لى شيئا آخر .

بالأمس تعطل القطار ، ووقفت مع الواقفين عدة ساعات فى الطريق ، قبل أن أجد بسيارة تحملنى الى المدينة . وكنت قد قبضت مرتبى ، وقد نصحنى صديق لى بوجوب شراء قاموس فى اللغة اليابانية ، وقال لى ان تعلم اللغة اليابانية مفيد هذه الأيام ، خاصة لمن حالته مثل حالتى .

ولم أفهم قوله تماما ، وماذا يقصد بحالتى ؟ ! لكننى كنت أعتقد باننى ربما سافرت الى اليابان فى يوم من الأيام ، وكنت فى تلك الآونة ، أحس بخوف شديد من ركوب الطائرات على الرغم من اننى لم أركبها مطلقا ، وكانت الاذاعة تحذر من الجواسيس الذين ينتشرون فى المنطقة بعد هزيمة ١٩٦٧ ، والصحف تنشر يوميا شيئا من القصص عن الاضرار التى تسببها ثرثرة المواطنين ، وكنت قد بدأت فى دراسة اللغة اليابانية ، واللغة اليابانية مثل اللغة الهيروغليفية ، مليئة بالرموز والاشارات . وعزمت على اخفاء دراستى لهذه اللغة عن الآخرين،

فربما يسألنى أحدهم عن سبب اهتمامى باللغة اليابانية ، فلا أفلح فى اقناعه باننى أتعلمها لأسباب تتعلق بى ، ولأنها مفيدة فى حالة مثل حالتى •

وعلى الرغم من اننى كنت أتعلم هذه اللغة بمفردى ، لكننى كنت أتقمص روح الرجل اليابانى ، وأنا أنطق تا ـ يو ـ كى ـ وفى هدوء مثل اليابانيين ، وكان لا يضايقنى سوى احساسى باننى طويل القامة وأن عينى واسعتان •

وعندما توقف القطار عند عودتى من العمل فى اليوم التالى ، قلت لنفسى :

ـ هذا فأل سيىء ، فالأمور ليست على ما يرام وأن اللغة اليابانية سوف تجلب لى المتاعب •

الفـــراق

عنايات الآن زوجة لرجل آخر .

تضاجعه كما ضاجعتنى وكما ضاجعت زوجها السابق .

كانت ترتعش بين يدى وعندما تقبلنى تترك شفتيها فى فمى .

ســمراء .

وكنت أدعوها فرسة وعندما نسير فى الغرفة عرايا ــ وكان ذلك قبل اقبالى على دراســة اللغة اليابانية ــ أرقب جسدها وأتشممه وأربت عليه فى قدسية ، كأننى أتعبد له .

أحاول السكنى والبقاء فى داخلها ، وأحكى لها شيئا عن ذلك المجذوب الذى رأى جدارا سميكا يحول بينه وبين الجنة فاخترقه بجسده ، وطار ، ثم عــاد ثانيــة الى الأرض ، وقد ارتدى ملابس نورانية .

فتقول لى :

ــ أحمق ومجنون ٠

هى فارعة القوام ،

جسدها مشدود ،

عنيــدة ،

ولكنها معى تكون كائنا رقيقا ٠

وذات يوم طلبت منها شيئا رهيبــا ٠ شــيئا كالبركان ، كالقوة المدمرة فى هــذا العالم ٠ كالشر نفسه ، أو كالتقوى نفسها ٠ شيئا عاصفا كالجنون أو العدل ، ذلك أن تجلس مرة فوق رأسى وتبول على وجهى ، كى أسمع ذلك الصوت ، وكى أرى ذلك الشىء وهو يندفع ، فتلسعنى ســخونته ويحــرقنى دفــؤه ٠

لكنها صفعتنى على وجهى ، قائلة ، أحيوان أنت !!

ولم أرها ثانيــة ٠

وعندما كنت أبحث عنها ، كانت تهرب منى وتزعم لصديقاتها اننى أقرفها ٠ وكنت أتعجب من أمرها ، فالمرأة التى تعودت على الحيض ومسح مؤخرات الأطفال صعب عليها أن تحس بالقرف ٠

ولم يعد فى مقدورى فهمها ولم ألح عليها ، حتى عرفت أنها تزوجت من رجل آخر ٠

شـجرة المعرفـة

أنا اذا رأيت الرب سوف أحاجه ، كما جاء فى التوراة .

كان اليهود يقارعون الرب بالحجة فى الزمن القـديم ، وسوف أحاجى الرب فور هبوطى من القطار ووصـولى الى بيتى سالمـا .

فعندما أغادر المحطة وتصبح القطارات خلفى ، والدخـان الأسود فوق رأسى ، ويأتينى ذلك الصفير المتقطع من ورائى . بينما تمثال رمسيس واقف أمامى ، وتحل الظلمـة بالميدان ، وأرى المركبة النارية ، وأسـمع ذلك الصهيل ثم النافخى فى الصور الى الخروف . لن أخفض رأسى ولن أرتمى على الأرض ، ولن أبكى ، بل سوف أقول يا الهى ، يارب السموات والأرض ، اذا كنت قد خلقت كل هؤلاء البشر ، فلماذا لا تعد لهم طرقات متسعة وقطـارات مريحة ، وكنت أسأل نفسى دائما :

ـ لماذا تكون لحطة القطار خلفى وأنا آسير حالما بمحاجاة الرب ؟

ويكون صباح •

وتكون محطة القطارات أمامى وأنا قادم من المدينة أهرول ، ويكون مساء وتكون محطة القطارات خلفى ، وأنا ذاهب الى المدينة أهرول •

لقد أوصى الرب الاله آدم قائلا من جميع شجر الجنة تأكل أكلا وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها ، لأنك يوم تأكل منها موتا تموت •

وأنا لم تعد تفزعنى الحبة التى أغرت حواء بالفاكهة المحرمة ، فالقطارات ثعابين رقطاء تتلوى طوال النهار والليل ، وصفيرها يمزق الصمت • وعندما نادى الرب الاله آدم ، وقال له :

ـ أين أنت ؟

قال سمعت صوتك فى الجنة فخشيت لأنى عريان فاختبأت • وهذا ما فعله آدم ، لكننى أقوم وارتدى ملابسى ، وأظل أحلم بالذهاب الى العمل فى موعدى •

ويكون صباح يوم آخر •

عندما ذهبت اليه ، سألنى ، قائلا :

ـ هل رأيت عنايات اليوم فى الطريق ؟

أجبته بالايجاب • وكنت قد رأيتها خارجة فى الصــباح من الباب الخارجى لمحطة القطــارات ، لتذهب وتقف بجوار تمثال رمسيس كعادتها كل صباح •

فجمع أوراقه ، ونهض قائلا :

ـ لا فــائدة •

كنت أنوى محادثته ، لكنه أمرنى أن آتى اليه فى نهايــة الشهر القادم قبل رجوعى الى العمل •

البحـــر

ارتديت ملابسى وكنت قد انتهيت من سماع اللحن المميز لبرنامج الصباح ، فمددت يدى الى المذياع وأدرت المفتـاح الى اليمين ، فصـدرت عنه فرقعة ثم صمت .

كل صباح ، أدير المفتاح الى اليمين فتصـدر الفرقعـة ثم يصمت المذياع وأكون عندئذ قد انتهيت من ارتداء ملابسى.

تبادلت عدة كلمـات مع زوجتى حول أسـعار الدجـاج والسمك ـ ففى الصـباح المبكر تتحـدث دوما حول وجبة الغداء ـ وطلبت منى أن أحضر شيئا معى من الجمعية لأنها اليوم متعبة ولن تقدر على الخروج، فوافقتها ، وهرولت الى الطريق .

قبل أن أقذف بنفسى داخـل الأتوبيس تذكرت شـيئا ، ولكننى فور أن وقفت فى الزحام ، ومددت يدى الى أعلى كى أستند الى سقف الأتوبيس نسيت ما كنت أحدث نفسى به ،

تضايقت على الرغم من اننى كنت متيقنا أن ما كنت أقوله لنفسى ليست له أهميـــة ، ولا يزيد عن كونه فكرة من تلك الأفكار التى تراود المتزوجين فى الصباح .

نعـــم .

أخيرا تذكرت . المذياع القـــديم الذى نمتلكه يضـــايق زوجتى بسبب كبر حجمه ، ولأنه يشغل حيزا كبيرا من الصـــالة ، كما أن الفرقعة التى تصـــدر عنه عند اطفائه تزعجها ، لكننى كنت أقول لها دائما ، ان هـــذا المذياع له قيمة أثرية ، فهو أول مذياع دخل قريتنا قبل الحرب . واننى قد ورثته عن جدى ، فتضحك قائلة ، انه قديم جدا ولا يذيع الا الأخبـــار القديمة . وزوجتى ولوعة بالأجهزة الحديـــثة الصـــغيرة الحجم ، وذلك ربما لأنهـــا تصغرنى بعشرين عاما وربما أيضـــا بسبب مرضها بالتقدم الطبى لمواجهة حالتها المستعصية . ولهـــذا فأنا أعرف جيدا طريقة تفكيرها عندما تقول ساخرة ، اذا كانت لهذا المذياع القديم قيمة أثرية فعلى أن أعيده ثانيـــة الى قريتنا ليحفظ بها هناك فى متحف . غير أن مسألة المذياع القديم هـــذه بالنسبة الى لها معنى مختلف ، فاننى أخشى التفريط فى هذا الجهـــاز بسبب الخوف .

نعم . الخوف . فاننى اذا تخلصت من هـــذا الجهـــاز أو حتى حركته من موضعه سوف تحل كارثة بنا . فقد مات

والدى فى اليوم الذى سمح لى فيه بنقل المذياع من القريـة الى القاهرة عندما التحقت بالجامعة ، وكان موته كارثة حقيقية ، فقد مات مقتولا برصاصـة انطلقت من مسدسه بينما هو يعبث به فى لحظة صفاء فى الشمس .

لكننى بالأمس تخلصت من مخـاوفى ، ورأيت أن أدخل البهجة الى قلب زوجتى المريض ، فطلبت من زميل لى له دراية بتلك الأجهزة الحديثـة شراء واحد لى ، وعندما سـألنى عن السبب ـ وكان يعرف مخاوفى ، قلت له ان انقطاع الكهرباء فى المنطقة هو السبب ، وأننا نرغب فى جهاز يعمل بالبطاريات .

هذا هو ما نسيت أن أخبر به زوجتى هـذا الصباح ، وظل يؤرقنى طوال الطريق ، فقد كنت أرغب فى أن أزف اليها هذه البشرى فتفرح ، فالأمس اشتكت لى من أن أحاديثنـا أصبحت تدور حول الموت ، وأن ذلك يخيفها ، بينما كنت أعيد على مسامعها كيف سقط زميل لى فى العمل ، وقضى وقد غطى الزبد الأبيض فمه قبل أن تتمكن من انقاذه ، وقالت لى أيضا ، انها قد سمعت هـذه القصة منى عدة مرات ، وانتى أتعمد بث الخوف فى نفسها .

زوجتى على حـق فى تخوفاتهـا من حكاياتى ـ وهـذا ما أدركته مؤخرا ـ ففى سن الخمسين يتحدث الانسـان عن

الموت دون خوف بعد أن يكون قد صادفه كثيرا فى حياته ، أما هى فتصغرنى بعشرين عاما ، وليست لها الخبرات التى لى ، كما أنها تخشى الموت لسبب آخر ، وهو ضعف عضلة قلبها ، وقد اكتشف الطبيب هــذه العلة فيها لأول مرة ــ كما تؤكد لى ــ بعد زواجنا بعامين فمنعها من الحمل وأمرها بالتوقف عن الذهاب الى العمل ، فتفرغت لشئون البيت على مضض وقد تركت وظيفتها .

لهذه الأسباب قررت شراء المذياع الجديد لها كى أخفف عنها وحدتها صباحا وهى مستلقية على السرير أو واقفــة فى المطبخ كما اننى عزمت أن لا أحدثها عن الموت ثانية .

كانت جدتى فى الزمن القديم ترفض الاقتراب من المذيــاع وتعتقد أنه مسكون بالجن ، ومن الغريب اننى تذكرت جدتى وصراخها فور أن أحضر زميلى المذياع الصغير الحجم وأدرته ، فأخرج صوتا صافيا دون حشرجة أو فرقعة . وقلت لنفسى :

ــ هذه الأجهزة تسكنها موجات أشــد خبثا من الجن وربما هذه الموجات هى التى تسبب أمراض القلب والسرطانات .

وسألت صديقى لحظتها ، عما اذا كان هنــاك أحد فى مقدوره أن ينفى أو يؤكد ان هــذه الموجات ليس لها علاقــة بالأمــراض .

قال لى بعد أن تأمل قولى :

ــ لا أحد يعرف الحقيقة •

واسترخى قليلا فى مقعده ثم أضاف قائلا :

ــ المشــكلة هى ان الأطبـــاء لا يفهمون فى الموجــات والمهندسين لا يفهمون فى الأمراض •

وأحضر الساعى الدجاجة المشوية فلففتها جيدا مع المذياع الجديد الصغير الحجم ، وقلت لصـــديقى أنه يتعين على اليوم العودة مبكرا قبل أن تفسد الدجاجة المشوية من الحر •

فحكى لى حكاية طريفة عن الحر ، وقال لى انه قد قرر مواجهة الصيف هــذا العام • وأخرج خريطة تفصيلية لمدينة القاهرة ، وقال لى :

ــ انظر ، هنا الجامع الأزهر • وهنا القاهرة القديمة • وهى كلها تقع الى الشرق • وهنا أهرامات الجيزة وكلها تقع الى الجنوب الغربى • هنــا مجرى النيــل • يقسم القــاهرة ويندفع من الجنوب الى الشمال •

تأملت الخريطة ووافقته على قوله ، فصديقى يتميز بالدقة فى الحديث ، ولا يشير الى أشياء لا يعرفها جيدا ، ومرجع ذلك

تبحره فى الدراســات القانونيــة بالاضافة الى دراسته الأصلية فى الهندسة . قال لى صديقى بعدها :

ـ أنظر . اذا جاء البحر من الشــمال الى الجنوب ، سوف تسبح القاهرة فى بحيرة من مياه البحر ، وتمتد شبكة من الطرقات المــائية تربط كل أطراف القاهرة بعضها ببعض مثل مدينة البندقية . أنظر شبكة الطرقات جاهزة على الخريطة .

قلت له ، وقد راقتنى الفكرة :

ـ وتصبح التنقلات بالقوارب الشراعية والصنادل .

قال لى فى ثقة :

ـ نعم . المدن المطلة على البحور والمحيطات دائما تكون معتدلة الجو وأشد نظافة من المدن الداخلية .

اتجه الى النافذة . وكان شارع رمسيس يعج بكل أنواع المواصــلات ، وطلب منى أن ألقى نظرة الى الطريق ، لكننى فضلت البقاء فى مقعدى ، وقلت له وأنا فى جلستى الى المكتب ، اننى أعرف جيــدا ما يجرى فى الطريق فى هــذا الوقت من منتصف النهار ، فمنذ عشرين عاما أحضر الى مكتبى وتصلنى الضجة وتلاحقنى فى غرفتى فى الطابق السابع .

قال صديقى وهو يطل من النافذة :

ــ تأمل هذا الطريق اذا غمرته المياه • سوف يكون شاعريا •

***

عند عودتى الى البيت كانت الدجاجة قد بردت ، لكننى كنت محملا بلفافة ضخمة مليئة بحاجيات منزلية ، ووجدت زوجتى جائعة ومتعبة ، فأعطيتها الدجاجة وطلبت منها اعداد المائدة وقد قاربت الساعة السادسة مساء ــ وخلعت ملابسى وارتديت لباس البحر الجديد الذى اشتريته من المدينة ، وخرجت الى الصالة ، وجلست الى المائدة •

لمحتنى زوجتى وهى تعد الطعام وأنا جالس بلباس البحر وصدرى عاريا ، فسألتنى عما أفعل ، فقلت لها :

ــ القاهرة حارة ومزدحمة وقد قررت مواجهة الحر هذا العام •

قالت لى زوجتى :

ــ أنا متعبة ولم أعد أقوى على الوقوف •

قلت لها كى أروح عنها :

ـ فى مدينة البندقية يتجولون بالصنادل فى الطرقات .

استمعت الى ساهمة ، ثم وضعت الأكواب على المـائدة ، فقلت لها :

ـ من المحتمل أن يصـل البحر الأبيض المتوسـط الى مشارف الجيزة .

نظرت الى برهة ثم عادت الى المطبخ ، فقمت الى المذياع القديم وحملته خارج الصـالة تمهيدا لبيعه ، وأدرت المذياع الجديد الصغير الحجم ، وحانت منى نظرة الى المطبخ ، فوجدت زوجتى مرمية الى الأرض والزبد يخرج من فمها ، فأدركت أنها قاضية لا محـالة ، وندمت لاننى اشتريت المذياع الجديد ، وقلت لنفسى ، تسببت فى موتها دون ان أدرى .

لوحــة زيتيــة

طلب منى منير أن يرســم لى صــورة زيتيــة ، فقلت عرضه ، قلت لنفسى لأرى صــورة لى فى لوحة زيتية ، وكنت أعتقد أن منير يصور الحقيقــة فى لوحاته ، وعندما نظرت فى عينيه أحسست به يغوص فى أعماقى ، وأمسك بالقلم ، وأخذ يخط عدة خطوط وهو يرمقنى بنظراته الفاحصة .

رأيت وجهى وعينى من عدة زوايا ، وقلت لنفسى هل أنا هــكذا ؟ !

بدأ منير يحــدثنى عن ماضــيه وهو يضرب على الورق بالفرشاة ضربات سريعة ، ثم يبتعد عن اللوحــة ، ويعيد النظر فيها من عدة مسافات ، ويتحــدث وهو لا يكمــل جمــله ، وأتابعه دائما قائلا نعم .

كنت أعابثه وأقول له ، ان آراءه السياسية خاطئة ، وأن

تحليلاته غير صائبة ، فيسبنى ويأخذ فى الدفـــاع عن نفســـه ، فأقول له ، ان جيل الأربعينات هو المسئول عن مصائب البلد ، فيضحك منى •

اجلس أمامه ثابتا فى جلستى ، أسرح بعيدا عنه ، وأعود اليه لأروى له شيئا ، وأتأمله وهو يدقق فى اللوحة •

فور دخولى الى مرسمه ، كنت أشعر بالرهبة كاننى فى معبد ساعة الصلاة، الكتب مرصوصة وموزعة فى الأركان ، عشرات من الأوراق المشدودة واللوحات ، وزجاجات الأحبار والألوان تغطى الموائد •

فنـــان •

يضرب بالفرشاة ، ويتحدث عن مظاهرات الطلبة ، وحياة السجن والمومسات ، ولا أتبين شـــيئا من كلامه ، ولا أدرى عما اذا كان يتحدث عن مظاهرات ١٩٤٦ أو ١٩٦٨ أو ١٩٧٢ ، ولكنه يفخلط الأحداث بعضها ببعض ، وينتقل من واحدة الى الأخرى دون توقف •

كنت أقول له صراحة ، انه من الذين خانوا ثورة ١٩٤٦ •

فيبدأ فى رواية أكاذيب وحقائق عن جميع رجال السياسة والفكر فى مصر ، ويلقى بجمل ناقصـــة وهو يلهث قـــائلا ان

كارثة البلد فى غيبة الديمقراطيــة والجيــل الجديد لا يعرف تاريخ بلده ٠

يقول لى ان مشكلة مصر ، هى أن الزعمــاء لا يقرأون اللغــة الفرنسية ، ولا يزورون المعــارض ، ولا يستمعون الى الموسيقى ، ثم نبدأ فى الاستماع سويا الى سبيليوس ، وفور أن تسرى ألحان سبيليوس الصغيرة فى المرسم ، ويتردد صداها أحس باحباط شديد ، فألحان سبيليوس مليئة بهموم فنلندا ، حيث الكون يجثم على نفوس البشر فى فظاظة وغلظة ، فالشتاء طويل ، والبحيرات الثلجية والغابات الموحشــة تثير الخوف ، وتبدو الحياة فى ظلها موحشة مليئة بالأشباح ٠

واتفقنا على حب سبيليوس ٠

قال لى منير ، ان قلة من النــاس من لهم القــدرة على الاســتماع الى سبيليوس ، وان غاية رجال الســلطة فى مصر الاستماع الى أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب ، وأن عبد الناصر قد أبدى اعجابه ذات مرة بشهرذاد ٠

رأيته كارها لرجال الشرطة وذوى النفوذ ، ساخرا من الزعماء وأقوالهم ، مفندا لادعاءاتهم ، ولكن ليس كمــا يفعل السياسيون ولكن بطريقة فريدة ، كأن يزعم أن كتف هــذا الرجل العريض يمنعه من النوم جيدا ، فكيف يتمكن من قيادة

أمة ، أو أن هذا الرجل لا يفرق عند النطق بين التاء والضـاد بسبب الجهل ، فكيف يسند اليه عمل سـياسى ، وتعلمت منه ان أدقق فى المتحدثين وطريقة سيرهم •

قال لى ، ان معظم رجالات الدول العربيـة يعـانون من البواسير ولمـا ابتسمت أخذ يدلل على قوله بالصور •

تأملت صور الزعمـاء وهم يهمون بالقيـام أو القعود أو المشى واقتنعت انهم يعانون من شىء ما ، وقلت له ، انهم يعانون من التهابات البروستاتا أيضـا • رمقنى بنظرة فاحصـة حتى يتبين عما اذا كنت جادا أو متهكما ، ثم قال لى ، ربما ، وزعم ان التهابات البواسير تؤثر على قدرة الانسـان العقلية •

فى بعض الأحيان ، يقدم لى شيئا من الطعام أو الشراب ، وأحيانا أخرى ، يتخذ مظهرا جديا ، فندلف الى المرسـم فور دخولى ، ويخبرنى بأنه مرتبط بعدة مواعيد ، فأتخذ جلستى فى صمت ، ويكف عن الحديث الى برهة ، ويأخذ فى ضرب اللوحة بالفرشاة ، ثم تلين أساريره ، ويفتر ثغره ، عن ابتسـامة ، ويبدأ الحديث •

تعلمت كيفية اثارة اهتمامه ، فأروى له فى بداية الجلسة ، شيئا عن اسفارى أو عن ابراهيم أو سلمى ، كأن أقول له ،

ان سلمى مريضـــة بمرض نفسى ، او أن ابراهيم تشاجر بالأمس فى الاتيليه ، أو أن الهادى ألقى خطبة نارية فى المقهى ، هاجم فيها الجميع أو اننى فقدت طائرتى ذات مرة ، فيبدأ فى الحديث عن نفســـه .

أحضرت له ورقة مطبوعة ، وقلت له ان الطلبة فى الجامعة يوزعون منشورات تضمنت هجوما عليـــه ، وكان صديقا لى قد صف الورقة فى مطبعة يمتلكها فأمسك بالورقة ، وقرأها بدون عناية ، ثم قال لى ، مساكين .

بعد قليل عاد الى الورقة ، وقرأ منها عدة أسطر ، وألقى بها على مقربة منه ، وقال لى شيئا عن الفن باللغة الفرنسية ، فقلت له ، نعم دون أن أتبينه ، ثم تناول الورقة غاضبا ، وقـــال هؤلاء غير شرفاء .

قلت له بالتأكيد .

قال ، من له مصلحة فى تشويه سمعتى سوى أذيال السلطة، والفاشلين من الفنانين .

قلت له ، نعم بالتأكيد .

كان آخر معرض له قبل النكسة عبارة عن صـــور زيتية لصفائح القمامة ، صفائح قمامة متعددة ومليئة بالقمامة وعلى

موائد مهجورة ، والصفائح تلمع وتنطفىء كأن اضاءة داخليـــة فى اللوحة تغمرها .

وكانت ســـلمى تروقنى ، وأبدى اعجـــابى بها فى حضرة ابراهيم ومنير ، وكنت متيما بساقيها ، وذات مرة حبوت أمامها حتى تسمح لى بتقبيل قدميها فرفضت .

وعرفت أن منير كان على علاقة بسلمى قبل تعرفى عليها ، وطلب ابراهيم منى عـــدم مقابلتها ، فأدركت انه يحوم حولها أيضـــا .

كانت اللوحة قد أوشكت على الانتهاء وقد بدت كاملة فى جانب منها ، وأخذ الجميع يعلقون عليهـــا ، تارة فى سخرية ، وتارة فى اعجاب .

روى منير حكاية المنشورات التى تهاجمه ، وتتهمه بخيانة ثورة ١٩٤٦ ، وزعم ان عدة منشـــورات تسبه قـــد وصلته ، وأصبحت هذه المنشورات محور أحاديثه ، وعلى الرغم من اننى كنت واثقا انه لا يصدق الحكاية برمتها الا اننى وجدته يرددها فى حمـــاس .

أجلس فى مرسمه فى الظهيرة ، وأدور بعينى بعيدا عنه فى

تلك الطرقات التى نشأت فيها ، وأعود اليه فأجده لايزال يضرب اللوحة ضربات خفيفة بالفرشاة ، وقد أخذت اللوحة تكتمل شيئا فشيئا ، فأدركت اننى امتلك عينين مسحوبتين ضيقتين ، وكنت اعتقد فيما سبق أن عينى واسعتان .

فى يوم من الأيام ، أقبل ابراهيم هائجا ، وقال لى ، ان سلمى على علاقة برجل انجليزى يدرس اللغة العربية ، اسمه هاندرسون .

قلت له ، أعرفه .

قال لى ، سلمى ضاعت ، قضى عليها هاندرسون .

وكان ابراهيم حزينا ، وانتابتنى أنا أيضا موجة من الغيرة ، تمكنت من اخفائها فى صعوبة ، وفى فضول شديد طلبت منه أن يروى لى بصراحة ماذا جرى لسلمى ، فاخبرنى ان هاندرسون وسلمى وصديقا لهما وفتاة أخرى ذهبوا فى سيارة الى ضاحية بالقرب من المعادى ، ثم استقلوا مركبا شراعيا ، وعندما هبط الليل عليهم ، نزل الجميع الى النيل بالقرب من الشاطىء فى ضوء القمر ، سعيا الى التطهر من الأمراض بالنزول الى النيل فى الليل ، وان هاندرسون كان مزودا بطوق نجاة وحبل ومنقد وبخور وكتب هندية لاستجلاب الأرواح الصالحة على

شاطىء النهر ، وانهم كانوا يستمعون الى موسـيقى خاصـة ساعة الاستحمام .

سألته كيف كانوا ينزلون النهر ، وكنت مشوقا ان أعرف شيئا عن سلمى ، قـال لى فى بساطة ، عراة واحدا تلو الآخر ، وسألته : عراة ؟ قال لى نعم .

أصبت بغصة ، وازدادت كراهيتى للانجليز ، فالاستيلاء على سلمى ، بمثابة سرقة الأهرامات ، وكنت أظنها شيئا يزيد عن كونها أنثى .

وقلت لنفسى ثانية ، عراة .

قال لى ابراهيم ، ان عائشة قد روت الحادثة برمتها لبعض زميلاتها وزعمت انها قد برأت بعد نزولها الى الميـاه من عدة أمراض ، وان ضـوء القمر الفضى عندما غمرها وهى تستحم ، أحست بنشوة عقليـة جعلتها تبتعد عن الجنون الذى يدفعهـا الى انتحار كل عدة سنوات .

قلت لمنير شيئا عما عرفته ، فلم يهتم هـذه المرة بأقوالى ، وزعم أن الجيل الجديد عنده مس من الدعارة ، وقال لى ، ان سلمى تعشق صـورها وهى عارية ، وانه يعرفهـا منذ كانت

طالبة فى كلية الفنون ، وأنها كانت لا تخجل من وقوفها عارية أما زميلاتها منذ بداية التحاقها بالكلية •

أخبرنى منير ان العرى سلاح فى أيدى الضعفاء ، فالمرأة القوية لا تتعرى أبدا دون رغبة ، أما سلمى فهى مريضة بمرض عقلى •

وأخذ يضع شيئا على اللوحة من الألوان الغامقة كى يحدد العينين ، وينظر الى وهو يلهث ويضرب بالفرشاة •

نظرت الى اللوحة ، قلت لنفسى ، ان مشكلة الانسان ، هى انه لابد أن يكون رجلا أو أنثى أو ما بين بين ، وان مشكلة سلمى هى انها امرأة ، واننا كلنا رجال من حولها •

وكلما قاربت اللوحة على الانتهاء ، رأيت شيئا غريبا عنى ، ففى البداية كانت ملامحى واضحة فى اللوحة ، ثم بدأت الملامح تتخذ شيئا من الغلظة ، فبدت فى عينى نظرة قاسية نافذة وعلى شفتى بقايا ابتسامة شاحبة ، ضائعة فى ظل يمتد من الذقن حتى جانب الغرفة •

قلت له ، ان اللوحة بدأت فى التغير ، وانها بدأت تتخذ مسارات أخرى •

قال لى ، انه لا يصور ما يراه فقط ، ولكنــه يبحث عن الجوهر .

انني على ثقــة من انه سوف ينتهى من لوحــة يضمها الى معرضه ، وانني قد أكون بالنسبة اليه بمثابة تجربة لونيــة ، وقد بدأت تختفى صــورتى وتذوب فى أجواء اللوحة .

وقرب انتهاء منير من اللوحة ، قلت له غاضبا ان هــذه اللوحة تصور أحد القتلة فى جو كابوسى .

قــال لى :

ــ نعم . هذا ما أراه .

فابتأســت .

صدر من هذه السلسلة :

● الرجل المناسب	(قصص)	فتحى غانم	١
● دموع رجل تافه	(قصص)	عبد الرحمن فهمى	٢
● الجميع يربحون الجائزة	(قصص)	ابو المعاطى أبو النجا	٣
● بالأمس حلمت بك	(قصص)	بهاء طاهر	٤
● رباعيات	(قصص)	شكرى عياد	٥
● من قتل الطفل	(مسرحيتان)	عبد الغفار مكاوى	٦
● منتصف ليل الغربة	(قصص)	جمال الغيطانى	٧
● رشق السكين	(اقاصيص)	محمد المخزنجى	٨
● وعلى الارض السلام	(قصص)	فاروق خورشيد	٩
● الأشواق والأسى	(رواية)	عبد الحكيم قاسم	١٠
● والبحر ليس بملآن	(رواية)	جميل عطية ابراهيم	١١
● ان تنحدر الشمس	(قصص)	سحر توفيق	١٢
● لا تسقنى وحدى	(رواية)	سعد مكاوى	١٣
● كهف الاخيار	(قصص)	شكرى عياد	١٤
● محطة السكة الحديد	(قصص)	ادوار الخراط	١٥
● حصار القلعة	(م شعرية)	محمد ابراهيم أبو سنة	١٦
● سارق الكحل	(قصص)	يحيى حقى	١٧

اربعة فصول شتاء	(قصص)	محفوظ عبد الرحمن	١٨
انـا الملك جئت	(قصص)	بهـاء طـاهر	١٩
تاريخ حياة صنم	(قصص)	عبد الرحمن فهمى	٢٠
الوداع : تاج من العشب	(قصص)	عبده جبير	٢١
النجوم العاليـة	(أقاصيص)	محمود الوردانى	٢٢
قلوب خاليـة	(روايـة)	عبد الرحمن الشرقاوى	٢٣
الشجرة والعصافير	(قصص)	ابراهيم عبد المجيد	٢٤
عطشان يا صبايا	(قصص)	سليمان فيـاض	٢٥
طرف من خبر الآخرة	(روايـة)	عبد الحكيم قاسم	٢٦
طعم القرنفل	(قصص)	جار النبى الحلو	٢٧
السحر الأسـود	(روايـة)	شفيق مقـار	٢٨
تسلق الجدار الأملس	(روايـة)	حسنى عبد الفضيل	٢٩
احتضار قط عجوز	(قصص)	محمد المنسى قنديل	٣٠
رحـلة الليـل	(قصص)	عبد الله خيرت	٣١
حبات النفتالين	(روايـة)	عاليـة ممـدوح	٣٢
ارض لا تنبت الزهور	(مسرحيـة)	محمـود ديـاب	٣٣
الخـوف	(قصص)	عبد الفتاح الجمل	٣٤
ما اجملنـا	(مسرحيتان)	محفوظ عبد الرحمن	٣٥
لم يعد الضحك ممكنا	(قصص)	يوسـف القعيـد	٣٦
جبـال السـام	(قصص)	فاروق خورشـيد	٣٧
الحنان الصيفى	(قصص)	احمـد الشيخ	٣٨

● يوسف والرداء	(قصص)	ابراهيم اصلان	٣٩
● مسألة لبنى	(مسرحية)	يحيى عبد الله	٤٠
● عكس الريح	(قصص)	يوسف ابو رية	٤١
● هل	(قصص)	محمد جبريل	٤٢
● عفاريت الجبانة	(مسرحية)	نعمان عاشور	٤٣
● الطائر والنهر	(قصص)	عائد خصباك	٤٤
● زهر الليمون	(قصص)	علاء الديب	٤٥
● الطواحين	(قصص)	امين ريان	٤٦
● رائحة البحر	(رواية)	سامى فريد	٤٧
● حضرة صاحب الدولة	(مسرحية)	عاطف الغمرى	٤٨
● أسباب للكى بالنار	(قصص)	خيرى شلبى	٤٩
● السين والطلسم	(قصص شعرى)	بدر الديب	٥٠
● أيام الانسان السبعة	(رواية)	عبد الحكيم قاسم	٥١
● الملاك الأبيض	(قصص)	محمد زفزاف	٥٢
● هذا ما كان	(قصص)	محمد البساطى	٥٣
● الغرف الاخرى	(رواية)	جبرا ابراهيم جبرا	٥٤
● اغنية حب حزينة	(قصص)	طلعت فهمى	٥٥
● انكسار الحروف	(قصص)	ربيع الصبروت	٥٦
● اخبار الدراويش	(رواية)	عبد الوهاب الاسوانى	٥٧
● النيل والغضب	(قصص)	فتحى عبد الفتاح	٥٨
● الشيء	(رواية)	نهاد شريف	٥٩

● الفيوم ومنابت الشجر	(روايــة)	عبد العزيز مشرى	٦٠
● الصخرة والطوف	(مسرحيات)	فــؤاد التــكرلى	٦١
● نورسان ابيضان	(قصــص)	نعيم عطيــة	٦٢
● ســتر العورة	(قصــص)	سعيد الكفراوى	٦٣
● الوجة الاخر للقمر	(قصــص)	محمد سليمان	٦٤
● ســـفر	(قصــص)	محمد المخزنجى	٦٥
● رجال من الرف العالى	(قصــص)	سليمان الشطى	٦٦
● رايت النخـل	(قصــص)	رضوان عاشور	٦٧
● ليلة حب مجنونة	(قصــص)	ليــلى العثمان	٦٨
● المستحيل والقيمة	(تجربة فى الديالكتيك)	بدر الديب	٦٩
● النعيم العــائم	(مسرحية)	توفيــق الحــكيم	٧٠
● شمس بيضـــاء	(قصــص)	محمد عبد السلام العمرى	٧١
● ديوان الملحقات	(قصــص)	عبد الحكيم قاسم	٧٢
● شــتاء داخلى	(قصــص)	أحمد زغلول الشيطى	٧٣
● حكايــة شــارعنا	(روايــة)	وجيــه الشربتلى	٧٤
● اذعــان صغير	(قصــص)	فهــد العتيــق	٧٥
● منحنى النهــر	(قصــص)	محمد البساطى	٧٦
● المشق أوله القرى	(قصــص)	ابراهيم فهمى	٧٧
● اغــلاق النوافذ	(قصــص)	ابراهيم عبد المجيد	٧٨
● أجنحة الحصان	(قصــص)	هــالة البدرى	٧٩

● وش الفجر	(قصص)	يوسف ابو ريه	٨٠
● حكى القرايا وحكى السرايا	(مسرحية)	ممدوح عدوان	٨١
● بستان الأزبكية	(قصص)	محمد عبد السلام العمرى	٨٢
● من دفتر العشق والغربة	(قصص)	جمال الغيطانى	٨٣
● البحر الرمادى	(قصص)	احمد الشيخ	٨٤
● لحس العتب	(رواية)	خيرى شلبى	٨٥

الأعداد القادمة :

● احاديث جانبية	(قصص)	جميل عطيه ابراهيم.
● شدو البلابل والكبرياء	(قصص)	فؤاد قنديل
● الزائر	(مسرحية)	أحمد الحوتى
● ساعات الكبرياء	(قصص)	ادوار الخراط
● تلك الاشياء	(قصص)	سامى فريد
● احتمالات	(قصص)	محمود جندارى
● رجل فى القلعة	(مسرحية)	محمد ابو العلا السلامونى
● الكرز	(قصص)	ليلى الشربينى
● سالومى	(مسرحية)	محمد سلماوى
● غزو الأرانب	(قصص)	نبيل عبد الحميد
● مجرى العيون	(قصص)	سعيد الكفراوى
● الكابوس	(مسرحية)	لينين الرملى
● أم الشعور	(قصص)	حسام فخر

الأعداد الممتازة القادمة :

● المعذبون فى الارض	(روايــة)	د. طـه حسين
● قنطرة الذى كفر	(روايــة)	د. مصطفى مشرفة
● خيوط العنكبوت	(روايــة)	ابراهيم عبد القادر المـازنى
● ابراهيم الثـانى	(روايــة)	ابراهيم عبد القادر المـازنى
● نائب عزرائيــل	(روايــة)	يوســف الســباعى
● فســاد الأمكنــة	(روايــة)	صــبرى مــوسى
● قصص مختارة	(قصــص)	يوســف ادريس
● الجبـــــل	(روايــة)	فتحى غــانم
● قصص مختــارة	(قصــص)	يوسف الشارونى
● اغنية الرياح الأربع	(دراما شعرية)	على محمود طه
● بحيرة المســاء	(قصــص)	ابراهيم اصــلان

تطلب كتب هذه السلسلة من :

● باعة الصحف ● مكتبات الهيئة ● معارض الكتاب بداخل مصر والخارج

● المعرض الدائم للكتاب ● مكتبات الهيئة المتنقلة بالاحياء والاقاليم

رقم الايداع ١٠٧٤٩/١٩٩٣

الترقيم الدولى I.S.B.N· 977 — 01 — 3596 — 8

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

في الحياة الحقيقية ، نادراً ما تكتمل « القصص » بل يمكن القول بأنه — في الحياة الحقيقية — نادراً ما تكون هناك « قصة » مثل تلك التي يؤلفها كتاب القصص : أي أنه نادراً — بل ربما هو مستحيل — أن تتركز حياة واحد أو عدد من الناس حول خيط واحد من الأحداث ، ومن الأفكار والمشاعر المرتبطة بها ، من بداية ما وحتى نهاية ذات مغزى — وبهذا المعنى تكون الحياة الحقيقية بكل لحظاتها أو جزئياتها ، أو مفرداتها الزمانية والمكانية والوقائعية والشعورية ، مثل قصص جميل عطية ابراهيم ، حيث لا تكون بداية القص أو نهايته ، هي بداية القصة ولا نهايتها ؛ وحيث لا تتسلسل ولا تتصاعد أحداث ومشاعر وأفكار ولا تتجدل في « الضفيرة » المشهورة ، وإنما قد تتجاور ، أو تتزامن ، أو تتوالى ، وقائع عدة ، قد يتكون منها ما يصلح للحكي أو الوصف ، أو للتذكر والتحوير ثم يتوقف كل شيء دون أن تنتهي الوقائع ، أو قبل أن تنتهي .. أو بعد ذلك ، لا يهم بما أن المغزى قد استكمل تكوينه ، ولا ضرورة لاشتراط أن تكتمل القصة ، ولا أن تتحدد « الرسالة » .. هكذا يلتقي العشاق القدامى دون أن يتجدد العشق ، أو يختلف الناس على بناء مقبرة للأسرة دون أن تبنى فعلاً أو دون أن يموت أحد أو يد[...] مخلوق ، وقد يكون الهدف المنتقى من « الوقائع » أن ير[...] إلى مكان آخر ، ولكن القص ينتهي دون أن يرحل هو ، و[...] « الآخر » .. ذلك أن « الأحاديث الجانبية » هي ما تتجاوز النهاية الأحاديث المحورية . كل ما في الأمر ، أنه في الحقيقية ، لا يوجد محور ، أو مركز يمكن الإمساك به بالـ[...] ولا اصطياده بالكلمات : المحور نتخيله نحن ، [...] أو بمشاعرنا ، أو بأفكارنا المسبقة !